روائح الورد من روائع السعدي

معالم منهجية من تفسير العلامة السعدي

د. محمد عمر دولة

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م



رَوائحُ الوَرْدِ

من روائعِ السعدي

(معالِم مِن تفسيرِ العلامة السعدي)

تأليف: محمد عمر دولة

رَوائحُ الوَرْدِ
من روائع السعدي
(معالم من تفسير العلامة السعدي)
المؤلف: محمد عمر دولة
الطبعة الأولى
1428هـ / 2007م

مقدمة

الحمد لله الذي (علَّمَ القرآنَ خلقَ الإنسانَ علَّمَه البيان)، والصلاة والسلام على خيرِ الأنامِ سيِّد ولَدِ آدم عليه أفضلُ الصلاة والسلام، وعلى آلِه وصحبِه الطيِّبين الطاهِرين، ومَن تَبِعَهم بإحْسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعد، فإنَّ (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله مَدْعاةٌ للفَخر، ورائعةٌ مِن روائعِ هذا العَصر؛ وذلك مما يزيدُ مِن ثِقَةِ هذه الأُمّةِ بعلمائها، ويَقينِها بأنَّ الخيرَ فيها دائمٌ إلى يومِ القيامة.

ولا ريبَ أنَّ القارىءَ المتأمِّل لهذا التفسيرِ البديعِ يَجِدُ فيه من البركةِ والعِلمِ والانتِفاعِ ما لَمْ يكُنْ يخطرُ له على بال؛ مما نُبيِّن بعضَ مَعالِمِه في المباحثِ التالية:

المبحث الأول: سهولة الاستفادة من (تيسير الكريم الرحمن).

المبحث الثاني: عناية السعدي بالعقيدة الصحيحة.

المبحث الثالث: السعدي والتفسير بالمأثور.

المبحث الرابع: إحكام التعريفات في (تيسير الكريم الرحمن).

المبحث الخامس: عناية السعدي باللغة وجمال الأسلوب.

المبحث السادس: اهتمام السعدي بالفقه الدعوي والاجتماعي:

المبحث السابع: براعة الاستنباط عند السعدي.

المبحث الثامن: عناية السعدي بالأصُول والمقاصد.

المبحث التاسع: اهتمام السعدي بالإدارة والسياسة الشرعية.

المبحث العاشر: عناية السعدي بالنواحي التربوية.

المبحث الأول
سهولة الاستفادة من
(تيسير الكريم الرحمن)

[1] إنَّ هذا التفسيرَ قد جاء مُوافِقاً لحاجةِ العصر: في صِغَرِ حَجْمِه، وخِفَّةِ حَمْلِه، وقلَّةِ صَفحاتِه؛ حيث لم تبلغْ ألفاً.[1]

[2] إنَّ (تيسيرَ الكريمِ الرحمن) قد أبدى مِن روعةِ تفسيرِ القرآن وحلاوةِ الأسلوبِ والبيان؛ ما أوحى إليَّ بهذا العنوان: (روائح الوَرْدِ من روائعِ السَّعْدي)؛ فمن قرأ (تيسير الكريم الرحمن) تنعَّم بجمالِ التعبير ومحاسن البيان؛ فكأنما أُهدِيَ إليه ريحانٌ و(مَنْ عُرِضَ عليه رَيْحانٌ؛ فلا يَرُدُّه؛ فإنه خفيفُ المحمَل، طيِّبُ الريح)![2] فما أرْوَعَهُ وأنفَعَهُ: (كليلِ تهامة: لا حَرٌّ ولا قرٌّ، ولا مَلالة ولا سآمة)![3]

[3] إنَّ هذا التفسير قد رُزِق حظا من اسمِه؛ فكان سَهلاً مُيسَّراً في مَبناه وعِبارتِه، فَخماً مُعظَّماً في معناه وإشارتِه. وقد شهد بذلك تلميذُه الشيخ العُثَيمين رحمهما الله تعالى.[4] وقد قيل:

وقلَّما أبْصَرَتْ عيناكَ من لَقَبٍ   إلا ومعناهُ إنْ فَكَّرْتَ في لَقَبِهْ!

ولله دَرُّ ابنِ القيم حين قال رحمه الله: "لما قدم النبِيُّ صلى الله عليه وسلم

1- راجع نسخة (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1-1421هـ. وهي المعتمَدة في هذا الكتاب.

2- الحديث رواه مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

3- جزءٌ من حديث أم زرع في الصحيحين.

4- انظر مقدمة (تيسير الكريم الرحمن) ص 11 بتحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

المدينة، واسْمُها (يثرب) لا تُعرَفُ بغير هذا الاسمِ؛ غيَّرَهُ بـ(طَيْبة) لَمَّا زال عنها ما في لفظِ (يثرب) من (التثريب) بما في معنى (طَيْبة) من (الطِّيبِ)؛ استحقَّتْ هذا الاسْمَ وازدادَتْ به طِيباً آخَرَ؛ فأثَّر طِيبُها في استِحقاقِ الاسم، وزادَها طِيباً إلى طِيبِها"![1]

1- زاد المعاد من هدي خير العباد لابن القيّم 2/336-339. مؤسسة الرسالة بيروت. ط1. 1399 هـ.

المبحث الثاني
عناية السعدي بالعقيدة الصحيحة

[1] إنَّ الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله قد اعتنَى في تفسيره ببيانِ العقيدة الإسلامية الصحيحة على مَنهجِ السلفِ الصالح رضي الله عنهم؛ فاهتمَّ بإثبات الصفات[1] والأسماء الحسنى[2]، وقضايا الإيمان[3]، وأدلّة التوحيد[4]، وخَلْق الجنة والنار[5]، والردّ على القَدَرِية[6]، وذكر صفات الأنبياء عليهم السلام[7] والأدلّة على صحة النبوّات[8] وفضل الإيمان بالغيب، حيث قال رحمه الله عند قولِ الله عزَّ وجل: (الذين يُؤمنون بالغيب) البقرة 3: "فهذا الإيمان الذي يُميِّزُ به المسلمُ من الكافر؛ لأنه تصديقٌ مُجَرَّدٌ للهِ ورُسُله, فالمؤمنُ يؤمنُ بكلِّ ما أخبرَ الله به, أو أخبرَ به رسولُه, سواء شاهدَه أو لم يُشاهدْه, وسواء فَهِمَه وعقلَه أو لم يهتدِ إليه عقلُه وفَهمُه بخلافِ الزنادقة المكذِّبين للأمورِ الغيبية؛ لأنَّ عقولَهم القاصرة المقصِّرة لم تهتدِ إليها, فكذَّبوا بما لم يحيطوا بعِلمِه, ففسَدت عقولُهم, ومَرَجَتْ أحلامُهم, وزكَت عقولُ المؤمنين المصدِّقين المهتدين بهدى الله". ص 40.

ومِن لطيفِ مُناظراتِه في إثباتِ الصفاتِ: قولُه في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (هل ينظُرُون إلا أن يأتيَهم الله) البقرة210: "يقال أيضا لِمَن أثبتَ بعضَ

1- راجع ص 49-64-94-109-132.
2- انظر على سبيل المثال: ص110.
3- دخول العمل في مسمى الإيمان ص 71. وعدم تخليد الموحّدين في النار ص 46- 117. وأنَّ العبدَ قد يكون فيه خصلةُ كفرٍ وخصلةُ إيمان ص 156.
4- الأدلة النقلية والعقلية ص 125.
5- راجع: ص 46
6- انظر: ص 44
7- ص 109-110-112.
8- ص 138.

الصفاتِ ونفَى بعضاً، أو أثبتَ الأسماءَ دون الصفات: إمَّا أن تُثبتَ الجميعَ كما أثبَتَه الله لنفسِه وأثبتَه رسولُه، وإما أن تنفيَ الجميعَ وتكون مُنكراً لربِّ العالمين؛ وأما إثباتُك بعضَ ذلك ونَفيُك لبعضِه فهذا تناقُضٌ؛ ففرِّقْ بين ما أثْبَتَّه وما نفَيتَه ولن تجدَ إلى الفَرقِ سبيلا، فإنْ قلتَ: ما أثبتُّه لا يقتضي تشبيهاً؛ قال لك أهلُ السُّنة: والإثباتُ لِما نَفيتَه لا يقتضي تشبيهاً، فإنْ قلتَ: لا أعقلُ مِن الذي نَفيتُه إلا التشبيه؛ قال لك النُّفاةُ: ونحن لا نعقلُ من الذي أثبتَّه إلا التشبيه؛ فما أجَبْتَ به النُّفاةَ، أجابك به أهلُ السنة لما نَفَيْتَه". ص 95.

[2] وقد تعرَّضَ الشيخ السعدي رحمه الله إلى بيانِ ما ينقضُ الإسلامَ وما لا ينقضه، فقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (بلى من كسبَ سيئةً وأحاطتْ به خطيئتُه فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون) البقرة81: "(من كسَب سيّئةً): وهو نكرةٌ في سياقِ الشرط؛ فيعمُّ الشِّركَ فما دونه. والمرادُ به هنا الشِّرك؛[1] بدليلِ قولِه: (وأحاطَت به خَطيئتُه) أي: أحاطَت بعاملِها، فلم تَدَعْ له مَنفَذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك؛ فإنَّ مَن معه الإيمان لا تحيطُ به خطيئتُه (فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون). وقد احتجَّ بها الخوارج على كُفرِ صاحبِ المعصية، وهي حُجَّةٌ عليهم كما ترى، فإنها ظاهرةٌ في الشِّرك؛ وهكذا كلُّ مُبطلٍ يحتجُّ بآيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على قولِه الباطل، فلا بُدَّ أن يكونَ فيما احتجَّ به حُجةٌ عليه"! ص 57.

1- يريد الشيخ رحمه الله أنْ يُبيِّنَ أنَّ هذا العُمُومَ المستَفادَ من وُرُودِ النكرةِ في سياقِ الشَّرطِ عُمومٌ مخصُوصٌ كما هو تعبيرُ الأصوليِّين رحمهم الله. واقتصرَ الشيخُ رحمه الله على الاحتجاجِ بالقرينة الواردة في الآية: وهي (وأحاطت به خطيئته)، ولم يذكرْ دليلَ التخصيصَ من غيرها لأمرين: أولا: لظهورِه في النصوصِ التي تستثني الشركَ من الذنوبِ التي تُرَدُّ إلى مشيئةِ الله عزَّ وجلَّ، كما قالَ الله جلَّ جلاله: (إنَّ الله لا يغفرُ أن يُشرَكَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء). النساء 48 و116. فمَن أشرك بربِّه؛ فقد حبطَ عملُه وأحاطت به خطيئته وخسرَ دنياه وآخراه، والعياذ بالله. وثانيا: لأن الشيخ أراد الاستدلالَ بنفسِ دليلِ الخصمِ كما بيَّنه بقوله رحمه الله: "وهكذا كلُّ مُبطلٍ يحتجُّ بآيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على قولِه الباطل؛ فلا بُدَّ أن يكونَ فيما احتجَّ به حُجةٌ عليه"!

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (فمَن عُفي له من أخيه شيءٌ فاتّباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان) البقرة 178: "وفي قوله: (أخيه) دليلٌ على أنَّ القاتلَ لا يكفر؛ لأنَّ المرادَ بالأُخوَّة هنا أُخوَّةُ الإيمان؛ فلم يخرجْ بالقتلِ منها؛ ومِن بابِ أولَى أنَّ سائرَ المعاصي التي هيَ دون الكُفرِ لا يكفرُ بها فاعلُها، وإنما ينقصُ بذلك إيمانُه". ص 84.

[3] إنَّ هذا التفسيرَ قد عملَ على ترسيخِ الإيمان بالقدَر، وبيانِ ثَمَراته: كالتوكُّلِ على الله، والتسليمِ بحكمةِ الله تعالى في ذلك:

فمِن ذلك قولُه في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (إنْ يَنْصُرْكم الله فلا غالِبَ لكم وإنْ يَخْذُلْكم فمَن ذا الذي يَنْصُرُكم مِن بَعدِه وعلى الله فلْيتوكّل المؤمنون) آل عمران 160: "أي: إنْ يُمْدِدْكم الله بِنَصرِه ومَعُونته؛ (فلا غالِبَ لكم)؛ فلو اجتمعَ عليكم مَن في أقطارِها، وما عندَهم من العَدَد والعُدَد؛ لأنَّ الله لا مُغالِبَ له، وقد قهرَ العبادَ وأخذَ بِنَواصِيهم؛ فلا تتحرّك دابّةٌ إلا بإذنِه، ولا تسكنُ إلا بإذنِه (وإنْ يَخْذُلْكم) ويَكِلْكم إلى أنفُسِكم (فمَن ذا الذي يَنْصُرُكم مِن بَعدِه)؛ فلا بُدَّ أن تَنْخَذِلُوا ولو أعانَكم جميعُ الخلق! وفي ضِمنِ ذلك الأمرُ بالاستنصارِ بالله والاعتمادِ عليه والبراءةِ من الحولِ والقُوة؛ ولهذا قال: (وعلى الله فلْيَتوكَّل المؤمنون)... ففي هذه الآيةِ الأمرُ بالتوكُّل على الله وحدَه، وأنه بِحَسَب إيمانِ العبد يكون توكّلُه". ص 154-155.

وكذلك قوله رحمه الله في تفسيرِ قول الله عزَّ وجلَّ: (أوَلَمَّا أصابَتْكم مُصيبةٌ قد أصَبْتُم مِثْلَيْها قُلْتُمْ أنَّى هذا قلْ هو مِن عندِ أنفُسِكم إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير) آل عمران 165: "هذا تَسْلِيةٌ مِن الله تعالى لعبادِه المؤمنِين، حين أصابَهم ما أصابَهم يومَ (أُحُد)، وقُتِل منهم نحو سبعين... (قُلْتُمْ أنَّى هذا) أي مِن أين أصابَنا ما أصابَنا وهُزِمْنا؟ (قُلْ هو مِن عندِ أنفُسِكم) حين تنازَعْتُم

وعَصَيْتُم مِن بعدِ ما أراكم ما تُحِبُّون؛ فعُودُوا على أنفُسِكم باللَّوم، واحذَرُوا مِن الأسبابِ المُرْدِيةِ (إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير)؛ فإيّاكم وسُوءَ الظنِّ بالله؛ فإنَّه قادِرٌ على نَصْرِكم، ولكنْ له أتَمُّ الحكمةِ في ابتلائكم ومُصِيبَتِكم؛ (ذلك ولو يشاءُ الله لانتَصرَ منهم ولكن لِيَبْلُوَ بعضَكم ببعض)[1]". ص 156

1- محمد 4. وتأمَّلْ حلاوةَ الرَّبطِ بين معنى الآيتين؛ فإنها هِبةُ الله لعبادِه المتقين.

المبحث الثالث

السعدي والتفسير بالمأثور

[1] إنَّ الشيخَ السعديَّ قد اعتنَى بتفسيرِ القرآن بالقرآن والسُّنة؛ حتى إنه ليذكِّر طالبَ العِلمِ بطريقةِ السلفِ السابِقين والموفَّقين من المتأخِّرين: كالقرطبي وابنِ كثير رحمهما الله؛ وذلك ما يجعلُ التفسيرَ أقربَ ما يكون إلى تفسيرِ السلفِ الصالح رضوان الله عليهم أجمعين:

فمِن أمثلةِ ذلك قولُ السعدي رحمه الله في تفسير الفاتحة: "هذا (الصِّراط المستقيم) هو (صراط الذين أنعمتَ عليهم) من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصّالحين". ص 39. يُشيرُ إلى قولِ الله عزَّ وجل في سورة النساء: (ومَن يُطِعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعَمَ الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداءِ والصالحين وحسن أولئك رفيقاً). النساء 69.

وقال رحمه الله في تفسير البقرة 10 في تقريرِه حكمةَ الله عزَّ وجلَّ في تقديرِ المعاصي على العاصين وتيسيرِ الهدايةِ للمتقين الموفَّقين: "في قوله عن المنافقين: (في قلُوبِهم مَرضٌ فزادَهم الله مرضاً) بيانٌ لحكمته تعالى في تقديرِ المعاصي على العاصين؛ وأنه بسبب ذنوبِهم السابقة يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجِبة لعقوباتها، كما قال: (ونُقلِّب أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرة)[1] وقال تعالى: (فلما زاغُوا أزاغ الله قلوبَهم)[2] وقال تعالى: (وأما الذين في قلوبِهم مَرَضٌ فزادَتْهم رِجْساً إلى رِجْسِهم)؛[3] فعقوبةُ المعصيةِ المعصيةُ بعدها, كما أنَّ مِن ثوابِ الحسنةِ الحسنةَ بعدها, قال تعالى: (ويزيدُ الله الذين

1- الأنعام 110.

2- الصف 5.

3- التوبة 125.

اهتَدَوا هُدى)[1]". ص 42.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قول الله عزّ وجل: (ختَمَ الله على قُلُوبِهم وعلى سَمْعِهم وعلى أبْصارِهم غِشاوة) البقرة 7: "أي: غِشاءٌ وغِطاءٌ وأكِنَّةٌ تمنعها عن النظرِ الذي ينفعُهم, وهذه طرُقُ العلم والخيرِ قد سُدَّت عليهم؛ فلا مَطْمَعَ فيهم, ولا خيرَ يُرجَى عندهم! وإنما مُنِعُوا ذلك, وسُدَّت عنهم أبوابُ الإيمان؛ بِسَبَبِ كُفرِهم وجُحُودِهم ومُعانَدتِهم بعد ما تبيَّنَ لهم الحق, كما قال تعالى: (ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمِنوا به أوّلَ مَرة)،[2] وهذا عِقابٌ عاجِلٌ. ثم ذكرَ العقابَ الآجِل, فقال: (ولهم عذابٌ عظيم) وهو عذابُ النارِ وسَخطُ الجبار". ص 42.

وكذلك قول السعدي في آية التحدِّي بالبقرة 23: (وإنْ كُنتم في رَيبٍ مما نزَّلْنا على عبدِنا): "في وَصْفِ الرسولِ بالعُبُودِية في هذا المقامِ العظيم, دلالةٌ على أنَّ أعظمَ أوصافِه صلى الله عليه وسلم قيامُه بالعُبُودِية التي لا يلحقُه فيها أحدٌ من الأوّلين والآخَرين، كما وَصفَه بالعُبوديةِ في مقام الإسراء, فقال: (سُبحانَ الذي أسْرَى بِعَبدِه)[3] وفي مقامِ الإنزال, فقال: (تباركَ الذي نزّلَ الفُرقانَ على عَبدِه)[4]". ص46.

وكذلك قوله رحمه الله: "وإذا كان لا أظلمَ ممن منعَ مَساجدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسمه؛ فلا أعظمَ إيماناً ممن سعَى في عمارةِ المساجدِ بالعِمارة الحسِّية والمعنوية، كما قال تعالى: (إنَّما يَعْمرُ مَساجدَ اللهِ مَن آمَنَ بالله واليومِ الآخر).[5] بل قد أمَرَ الله برفعِ بُيوتِه وتعظيمِها وتكريمِها، فقال تعالى: (في

1- مريم 76.
2- الأنعام 110.
3- الإسراء 1.
4- الفرقان 1.
5- التوبة 18.

بُيوتٍ أذِنَ الله أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسْمُه)[1]". ص 63.
وكذلك قوله في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: (وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلِّمُنا الله أو تأتينا آية): "يعنُون آياتِ الاقتراح التي يقترحونها بعقولِهم الفاسِدة وآرائهم الكاسِدة، التي تجرؤوا بها على الخالق، واستكبرا على رُسُلِه، كقولهم: (لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جَهْرةً)،[2] (يسألك أهلُ الكتابِ أن تنزلَ عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك) الآية[3] وقالوا: (لولا أُنزِلَ إليه ملَكٌ فيكونَ معه نذيراً أو يُلقَى إليه كنْزٌ أو تكون له جَنةٌ) الآيات[4] وقوله: (وقالوا لن نؤمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا مِن الأرضِ يَنْبُوعاً)[5] الآيات. فهذا دأبُهم مع رُسلِهم, يطلبون آياتِ التعنتِ, لا آيات الاسترشاد". ص 64.
[2] ولا شك أن منهج السعدي رحمه الله في تفسير القرآن بالقرآن والسُّنة يُعِين على الجمعِ بين معاني الآيات؛ إذْ إنَّ بعضَها عامٌّ وبعضها خاصٌّ، كما قال رحمه الله في تفسيرِ مطلعِ البقرة عند قول الله تعالى: (هُدًى للمتقين) البقرة 2: "وقال في موضعٍ آخر: (هُدًى للناس) فعمَّم, وفي هذا الموضع وغيره (هُدًى للمتقين)؛ لأنه في نفسِه هُدًى لجميعِ الخلقِ, فالأشقياءُ لم يرفعُوا به رأساً, ولم يقبلُوا هدَى الله؛ فقامت عليهم به الحجةُ؛ ولم ينتفعوا به لشقائهم! وأما المتقون الذين أتَوْا بالسببِ الأكبرِ لِحُصُولِ الهدايةِ: وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذُ ما يَقِي سَخَطَ الله وعذابَه بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ النواهي — فاهتدَوا به, وانتفعُوا غايةَ الانتِفاع, قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً)؛[6] فالمتقون هم المنتفِعُون بالآيات القرآنية والآيات

1– النور 36.
2– البقرة 55.
3– النساء 153.
4– الفرقان 7–8.
5– الإسراء 90.
6– الأنفال 29.

الكونية". ص40.

[3] ولا ريب أنَّ هذا المنهجَ يفيدُنا كذلك في إدراكِ المعاني الصحيحة بحَملِ مُطلَقِ الآياتِ على المقيَّد: كما قال رحمه الله في تفسير قولِ الله عزَّ وجل: (قلْ لله المشرقُ والمغربُ يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مُستقيم) البقرة 142: "لَمَّا كان قوله: (يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)، والمطلَقُ يُحْمَل على المقيَّد؛ فإنَّ الهداية والضلال لهما أسبابٌ أوجَبَتْها حكمةُ الله وعدلُه, وقد أخبرَ في غيرِ موضعٍ من كتابه بأسبابِ الهداية, التي إذا أتى بها العبدُ حصلَ له الهدى, كما قال تعالى: (يهدي به اللهُ من اتبعَ رضوانَه سُبُلَ السلام)[1]". ص 70.

[4] إنَّ هذا التفسير المبارك قد اهتمَّ بذكرِ أساليبِ القرآن وطرائقِه؛ مما يدلُّ على مَلَكةٍ عاليةٍ من التدبُّر؛ فهو يذكرُ النظائر: كما في قوله: "كثيراً ما يجمعُ الله تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأنَّ الصلاةَ مُتضمِّنةٌ للإخلاص للمَعبود, والزكاة والنفقة مُتضمِّنةٌ للإحسانِ على عبيدِه, فعنوانُ سعادةِ العبدِ إخلاصُه للمَعبود, وسعيُه في نفعِ الخلق, كما أنَّ عنوانَ شَقاوةِ العبدِ عَدمُ هذين الأمرَين منه؛ فلا إخلاصَ ولا إحسان". ص 41. وقوله كذلك:[2] "الله تعالى يقرنُ بين الصلاةِ والزكاة؛ لِكَوْنِهما أفضلَ العِباداتِ وأكْمَلَ القُربات: عبادات قلبيّة وبدنيّة وماليّة؛ وبهما يُوزَن الإيمانُ, ويعْرَفُ ما مع صاحبِه من الإيقان". ص 83.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (فسَوّاهنّ سبعَ سموات وهو بكلِّ شيءٍ عليم) البقرة 29: "فخلَقَها وأحكَمَها وأتقَنَها، (وهو بكلِّ شيءٍ عليم)؛ فـ(يعلم ما يَلِجُ في الأرضِ وما يخرجُ منها، وما يَنْزِلُ من السماء وما يعرجُ

1- المائدة 16.
2- في تفسير قول الله تعالى: (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) البقرة 177.

فيها)، و(يعلم ما تُسِرُّون وما تُعلِنُون) (يعلمُ السِّرَّ وأخْفَى). وكثيراً ما يقرن بين خَلْقه للخلقِ وإثباتِ عِلْمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: (ألا يعلَمُ مَنْ خلقَ وهو اللطيفُ الخبير)؛[1] لأنَّ خلقَه للمخلوقات أدلُّ دليلٍ على عِلْمِه وحِكْمَتِه وقُدْرتِه". ص 48.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (فمَن تَبِعَ هُداي فلا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذَّبُوا بآياتِنا أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون) البقرة 38-39: "في هذه الآيات وما أشبَهَها انقِسامُ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ: إلى أهلِ السعادةِ وأهلِ الشقاوةِ، وفيها صفات الفريقين، والأعمال الموجبة لذلك، وأنَّ الجنَّ كالإنسِ في الثوابِ والعقاب". ص50.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ واركعُوا مع الراكِعين) إلى أنَّ في ذلك إشارةً إلى الجمع "بين الأعمالِ الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاصِ للمعبود والإحسانِ إلى عبيده، وبين العباداتِ القلبية والبدنية والمالية". ص 51 .

كما أشار رحمه الله إلى "طريقةِ القرآنِ في ذِكْرِ العِلمِ والقُدرةِ عَقِبَ الآياتِ المتضمِّنة للأعمالِ التي يُجازَى عليها". ص 69.

وأما عِنايتُه بطريقةِ القرآنِ في إزالةِ الأوْهام مِن الأذهان؛ فحدِّثْ ولا حَرج: فإنَّ السَّعديَّ لا يكاد يغادِرُ موضعاً من هذا القَبيل إلا نصَّ عليه.[2]

[5] إنَّ هذا التفسيرَ الجليلَ قد استَلْهَمَ رُوحَ السُّنةِ النبوية؛ فدعا الناس إليها بلسانِ الحالِ والمقالِ؛ حتى إنَّ القارئ لَيَستَحْضِرُ أحاديثَ النبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِمُجرَّدِ أنْ يسمعَ بعضَ المعاني التي يربط بها السعدي رحمه الله بين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية:

1- الملك 14.

2- كما تراه على سبيل المثال: في ص 54-71-73-86-89-138-155-165.

ومن أمثلة ذلك: قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (لتكونوا شُهداءَ على الناس) البقرة 143 "ومِن شهادةِ هذه الأمةِ على غيرِهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسَلِين عن تبليغِهم, والأمم المكذِّبة عن ذلك, وأنْكَـرُوا أنَّ الأنبياء بلَّغَتْهم؛ استَشْهَدَتَ الأنبياءُ بهذه الأُمة, وزكَّاها نبيُّهـا". ص71. فهـذا يُذكِّر طالبَ العلمِ بما رواه البخاري رحمه الله في كتاب (أحاديـث الأنبيـاء) باب قول الله عزَّ وجل: (ولقد أرْسَلْنا نُوحاً إلى قومِه) هود 25، وفي كتـاب (التفسير) باب (وكذلك جَعَلْناكم أُمّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهداءَ على الناسِ ويكـون الرسولُ عليكم شَهِيداً) البقرة 143، وفي كتاب (الاعتصام بالكتاب والـسنة) باب (وكذلك جَعَلْناكم أُمَّةً وَسَطاً) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (يُدْعَى نُوحٌ يومَ القيامة فيقـول: لَبَّيـك وسَعْدَيْك يارَبّ! فيقول: هل بلَّغْتَ؟ فيقول: نعم. فيُقال لأمَّتِـه: هـل بلَّغَكـم؟ فيقولون: ما أتانا مِن نذيرٍ! فيقول: مَن يشهدُ لك؟ وفي رواية الاعتصام: مَـن شُهُودُك؟ ـــ فيقول: محمَّدٌ وأُمّتَه؛ فيشهَدُون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً؛ فذلك قولُه جَلَّ ذِكْرُه: (وكذلك جَعَلْناكم أُمةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شهداءَ على الناسِ ويكون الرسولُ عليكم شهيدا).

وكذلك قوله رحمه الله في تفسيرِ قول الله جلَّ جلاله: (فلَنُوَلِّيَنَّك قِبْلَةً ترضاها) البقرة 144: "أي: تُحبُّها وهي الكعبة, وفي هذا بيانٌ لِفضلِه وشَرفِه صلى الله عليه وسلم؛ حيث إنَّ الله تعالى يُسارِع في رضاه". ص 71؛ فإنَّ هذه العِبارةَ مُسْتوحاةٌ مِن قول أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما نزل قول الله عـزَّ وجلَّ: (تُرْجي مَن تشاء منهن وتُؤوي إليك مَن تشاء) الأحزاب 51: (ما أرى ربَّك إلا يُسارِعُ في هَواك!) كما في الصحيحين.

وقد قال السعدي رحمه الله في تفسيرِ الآيات الوارِدة في المنافِقِين: "اعلَـمْ أنَّ النِّفاقَ هو: إظهارُ الخيرِ وإبطانُ الشر, ويدخلُ فـي هـذا التعريـفِ النِّفـاقُ

الاعتِقادي والنفاقُ العملي, فالنِّفاقُ العمَلي كالذي ذكرَ النبِيُّ صلى الله عليه وسلم في قولِه: (آيةُ المنافِق ثلاث: إذا حدَّثَ كذب, وإذا وَعَدَ أخلَف, وإذا أؤتُمِن خان), وفي رواية: (إذا خاصَمَ فَجَر). وأما النِّفاقُ الاعتِقادي الْمُخْرِج عن دائرةِ الإسلام, فهو الذي وَصَفَ الله بِه المنافِقِين في هذه السورة وغيرها". ص 42.

وقال رحمه الله في تفسير قولِ الله عزَّ وجل: (ومنهم من يقول ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حَسنةً) البقرة 201: "الحسَنةُ المطلُوبة في الدنيا يدخلُ فيها كلُّ ما يحسُنُ وقْعُه عند العبد: من رِزقٍ هَنِيءٍ واسعٍ حلالٍ، وزوجةٍ صالحةٍ، وولَدٍ تقرُّ به العين، وراحةٍ، وعلمٍ نافعٍ، وعملٍ صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة المباحة. وحسنةُ الآخرة: هي السلامةُ من العقوبات في القبرِ والموقفِ والنار، وحصولُ رضا الله، والفوزُ بالنعيم المقيم، والقربُ من الربِّ الرحيم؛ فصار هذا الدعاءُ أجمعَ دُعاءٍ وأكملَه، وأولاه بالإيثار؛ ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُكثر من الدعاء به والحثِّ عليه". ص 93.

[6] إنَّ السَّعدي رحمه الله قد وُفِّقَ في عَدَمِ التعويلِ على الإسرائيليات، والانسياقِ وراء أوهامِ أهلِ الكتاب وأباطيلِهم:

وقد صَرَّحَ بِمَنهجِه في ذلك بقوله: "اعْلَمْ أنَّ كثيراً من المفسِّرين رحمهم الله قد أكثروا في حَشْوِ تفاسيرِهم مِن قصصِ بني إسرائيل، ونزَّلُوا عليها الآياتِ القرآنية، وجعلُوها تفسِيراً لكتابِ الله، مُحتَجِّين بقولِه صلى الله عليه وسلم: (حَدِّثُوا عن بنِي إسرائيل ولا حَرَج). والذي أراهُ أنه وإنْ جاز نَقْلُ أحاديثِهم على وَجْهٍ تكون مُفرَدةً غيرَ مَقرُونةٍ ولا مُنَزَّلة على كتاب الله؛ فإنه لا يجوزُ جَعلُها تفسِيراً لِكتابِ الله قطعاً إذا لم تَصِحَّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك أنَّ مرتَبتَها كما قال صلى الله عليه وسلم: (لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذِّبوهم)؛ فإذا كانت مَرتَبتُها أنْ تكونَ مَشكُوكاً فيها، وكان مِن

المعلوم بالضرورةِ مِن دينِ الإسلامِ أنَّ القرآنَ يجبُ الإيمانُ بِهِ، والقَطعُ بألفاظِه ومعانيه؛ فلا يجوزُ أن تُجْعَلَ تلك القِصصُ المنقُولةُ بالرواياتِ المجهولة ـ التي يغلب على الظنّ كذبُها أو كذبُ أكثرِها ـ مَعانيَ لِكتابِ الله، مَقطوعاً بها، ولا يستريبُ بها أحد؛ ولكن بسببِ الغفلةِ عن هذا حَصلَ ما حَصل!" ص 55-56.

وقال رحمه الله في تفسير قولِ الله عزَّ وجل: (أو كالذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عُرُوشِها قال أنَّى يُحيِي هذه الله بعد موتِها) البقرة 259: "الظاهرُ من سياقِ الآية أنَّ هذا رجلٌ مُنكِرٌ للبعثِ أراد الله به خيراً، وأنْ يجعلَه آيةً ودلِيلاً للناس لثلاثةِ أوجُهٍ: أحدها: قوله: (أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها)؛ ولو كان نبيّاً أو عبداً صالحاً لم يقلْ ذلك، والثاني: أنَّ الله أراه آيةً في طعامه وشرابه وحماره ونفسه؛ ليراه بعينه؛ فيقرّ بما أنكره...والثالث: في قوله: (فلما تبيَّن له) أي تبيّن له أمرٌ كان يجهله ويخفى عليه؛ فعُلِم بذلك صحّة ما ذكرناه". ص 112.

ويتميز رحمه الله في هذا المجال بأنه يقف مع النصّ ولا يحب التكلُّف، كما ترى ذلك في كلامِه عن قصة مَلِكةِ سبأ: فقد قال رحمه الله: "فهذا ما قصَّه الله علينا من قصةِ مَلِكةِ سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولَّدة والقصص الإسرائيلية فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الجزم بها على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك؛ فالحزمُ كلُّ الحزم الإعراضُ عنها وعدمُ إدخالِها في التفاسير". ص 606.

وقال كذلك في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة العنكبوت: "فأما ما يُذكَرُ في الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه بابَ البعوض؛ فشرب دماءهم وأكل لُحومَهم وأتلَفَهم عن آخرِهم فهذا يتوقف الجزمُ به على الدليل الشرعي،

ولم يوجد! فلو كان الله استأصلَهم بالعذاب لذكرَه كما ذكر إهلاكَ الأمم المُكذِّبة، ولكنْ لعل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلِهم وأحلَمِهم وأجلِّهم؛ فلم يَدْعُ على قومِه كما دعا غيرُه ولم يكن الله ليُجريَ بسببه عذاباً عاماً. ومما يدل على ذلك أنه راجَعَ الملائكةَ في إهلاكِ قومِ لوط، وجادلَهم ودافعَ عنهم، وهم ليسوا قومَه! والله أعلم بالحال". ص 630.

المبحث الرابع
إحكام التعريفات في
(تيسير الكريم الرحمن)

[1] لقد وُفِّقَ الشيخُ السعدي رحمه الله في إحكام التعريفات والأنواع والأقسام؛ مما يؤكِّد مَلَكَتَه المنهجية، ومعرفته التربوية: فقد عرَّف الحكمة بأنها "وَضْــعُ الشيء في مَوضِعِه اللائقِ به". ص 49، و"هي العِلمُ النافِع والعملُ الــصالح ومعرفةُ أسرارِ الشرائع... فكَمالُ العَبدِ مُتوقِّفٌ على الحكمة؛ إذْ كمَالُه بتكميلِ قوَّتَيه العِلْميّة والعَمَليّة... وبذلك يتمكنُ من الإصابةِ بالقولِ والعمــلِ وتنزيــلِ الأمُورِ مَنازِلَها في نفسِه وفي غيرِه؛ وبدون ذلك لا يُمْكنه ذلــك". ص 115.
وقال رحمه الله: "الحكمة: إما السُنةُ التي قد قال فيها بعض السلف: إن الــسنة تنزل عليه كما ينزل القرآن، وإما معرفةُ أسرارِ الشريعة الزائدة على معرفة أحكامِها وتنزيلُ الأشياءِ منازلَها وترتيبُ كلِّ شيء بِحَسَبِه". ص201.
وعرَّف رحمه الله (العبادةَ) تعريفاً جامعاً مُفصَّلا، في تفسير قولِ الله تعــالى: (صبغةَ الله ومَن أحسَنُ من الله صِبغةً ونحن له عابِدُون) البقرة 138، فقــال: "في قوله: (ونحن له عابِدُون) بيانٌ لهذه الصِّبغة, وهي القِيامُ بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة؛ لأنَّ (العبادة): اسمٌ جامعٌ لِما يُحبُّــه الله ويرضــاه مــن الأعمالِ والأقوالِ الظاهِرة والباطنة؛ ولا تكون كذلك حتى يشرعَها الله علــى لسانِ رسوله, والإخلاص: أن يقصدَ العبدُ وجهَ الله وحدَه في تلك الأعمــال؛ فتقديم المعمولِ يُؤْذِن بالحصر". ص 69.
وعرَّفَ (الشكر) في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (فاذكروني أذكركم واشكروا لي) البقــرة 152بقوله رحمه الله: "أي على ما أنعَمتُ عليكم بهذه النِّعم, وصرفتُ عنكم صُنُوفَ النِّقم. والشكرُ يكون بالقلب: إقراراً بــالنِّعم واعترافــاً, وباللّــسان: ذِكــراً وثنــاءً,

وبالجوارح: طاعةً لله وانقياداً لأمرِه واجتناباً لِنَهيِه؛ فالشكرُ فيه بَقاءُ النعمةِ الموجودة، وزِيادةٌ في النِّعَم المفقودة، قال تعالى: (لئن شكرتُم لأزيدنَّكم)[1]". ص 74.

وعرَّف (الصبر) في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: (يا أيها الذين آمنوا استعِينوا بالصَّبرِ والصَّلاة) البقرة 153 بقوله رحمه الله: "فالصّبرُ هو: حَبسُ النفس وكفُّها على ما تكره. فهو ثلاثة أقسام: صَبرُها على طاعةِ الله؛ حتى تؤدِّيَها، وعن معصية الله؛ حتى تتركَها، وعلى أقدار الله المؤلِمة؛ فلا تتسخَّطها". ص 75.

وعَرَّف (المُحاجَّة) مُبيِّناً ضوابطَها في تفسير قولِ الله عزَّ وجلَّ: (قل أتُحاجُّوننا في الله) البقرة 139 "المحاجَّة: هي المجادَلة بين اثنَين فأكثر, تتعلَّق في المسائلِ الخلافية؛ حتى يكون كلٌّ من الخصمَين يريدُ نُصرةَ قولِه وإبطالَ قولِ خصمِه: فكلٌّ منهما يجتهدُ في إقامةِ الحجة على ذلك, والمطلوبُ منها: أن تكون بالتي هي أحسن, بأقربِ طَريقٍ يرُدُّ الضّالَ إلى الحق, ويُقيمُ الحقَّ على المعانِد, ويوضح الحق ويبين الباطل؛ فإنْ خرجَت عن هذه الأمور, كانت مُماراةً ومُخاصَمةً لا خيرَ فيها, وأحدَثتْ من الشرِّ ما أحدَثَتْ". ص 69.

[2] ويلاحَظ أنَّ السعدي رحمه الله يفصِّلُ التعريف إذا احتاجَ إلى تفصيلٍ وتَمثيلٍ، كما في قوله رحمه الله في تعريف (العبودية) عند قولِ الله تعالى: (وعبادُ الرحمنِ الذين يمشُون على الأرضِ هوناً) [الفرقان 63]: "العبوديةُ لله نوعان: عُبوديةٌ لرُبوبيَّتِه؛ فهذه يشترك فيها سائرُ الخلق: مسلمُهم وكافرُهم بَرُّهم وفاجرُهم؛ فكلُّهم عبيدٌ لله مربوبون مُدبَّرُون (إنْ كلُّ مَن في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عبداً)، وعبوديةٌ لألوهيتِه وعبادتِه ورحمتِه، وهي عُبُوديةُ أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا". ص586.

وقوله رحمه الله في تعريف (الإحسان) عند قولِ الله تعالى: (وأحْسِنُوا إنَّ الله

1- إبراهيم 7.

يُحِبُّ المُحْسِنِين) البقرة 195: "يدخلُ فيه الإحسانُ بالجاه: بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخلُ في ذلك الإحسانُ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليمُ العِلمِ النافع، ويدخلُ في ذلك قَضاءُ حَوائجِ الناس: من تفريجِ كُرباتِهم، وإزالةِ شِدَّاتهم، وعِيادةِ مرضاهم، وتشييعِ جنائزهم، وإرشادِ ضالِّهم، وإعانةِ من يعمل عملاً، والعملِ لِمَن لا يُحْسِنُ العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسانِ الذي أمرَ الله به، ويدخلُ في الإحسان أيضاً الإحسانُ في عبادة الله". ص 90.

وقال رحمه الله في بيان (وَسَطِية) هذه الأمةِ في تفسير قولِ الله عزَّ وجل: (وكذلك جَعلْناكم أُمَّةً وَسَطاً) البقرة 143: "جَعَلَ الله هذه الأُمةَ وَسَطاً في كلِّ أمورِ الدِّين: وَسَطاً في الأنبياء: بين مَن غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود؛ بأنْ آمنُوا بهم كلِّهم على الوجهِ اللائق بذلك, ووَسَطاً في الشريعة: لا تشديدات اليهود وآصارهم, ولا تهاون النصارى. وفي باب الطهارة والمطاعم: لا كاليهود الذين لا تصحُّ لهم صلاةٌ إلا في بِيَعِهم وكنائسهم, ولا يُطهِّرهم الماء من النجاسات, وقد حُرِّمت عليهم طيِّباتٌ أُحِلَّت لهم. ولا كالنصارى الذين لا يُنجِّسُون شيئاً, ولا يُحرِّمُون شيئاً, بل أباحوا ما دبَّ ودَرَج! بل طهارتُهم[1] أكملُ طهارةٍ وأتَمُّها, وأباح لهم الطيِّباتِ من المطاعمِ والمشارِبِ والملابِسِ والمناكِح, وحرم عليهم الخبائثَ من ذلك؛ فلهذه الأمّةِ من الدِّين أكملُه, ومن الأخلاقِ أجلُّها, ومن الأعمالِ أفضَلُها". ص 70.

[3] وأما التقسيم والتنويع فمِن فُنونِ الكتابة وطُرُقِ البحث التي تُزيِّن أسلوبَ السعدي رحمه الله، وهو أُسلوبٌ شَيِّقٌ مُوفَّقٌ ينتفعُ به طالبُ العِلمِ في تيسيرِ الحفظِ والفَهمِ غايةَ الانتفاعِ.

1- أي طهارة المسلمين.

فقد ذكرَ (التربية العامة والخاصة) ص 39،[1] و(هداية البيــان والتوفيــق) ص 40،[2] و(مرض الشهوات والشبهات) ص 42, وبيَّنَ أنّ (الفسق نوعــان) ص 3،[4] و(توبة الله على العبد نوعان) ص 50[5] و350، و(إذن الله نوعان: قدريٌّ وشرعيٌّ) ص 61،[6] و(الإحسان نوعان) ص 148-149،[7] و(له ضدّان) ص[8]57-178،[9]

1- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (ربّ العالمين) الفاتحة 2: "تربيته تعالى لخلقه نوعان: عامةٌ وخاصةٌ فالعامــة: هــي خلقــه للمخلوقين, ورزقهم, وهدايتهم لما فيه مصالحهم, التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه, فيربّيهم بالإيمان, ويوفّقهم له, ويكمّله لهم, ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه. وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير, والعصمة من كل شــر؛ ولعلّ هذا المعنى هو السّرّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الربّ؛ فإنّ مطالبهم كلّها داخلةٌ تحت ربوبيّته الخاصة. فدلّ قوله (ربّ العالمين) على انفراده بالخلق والملك والتدبير والنعم, وكمال غناه, وتمام فقر العالمين إليه, بكل وجه واعتبار" ص 39.

2- قال رحمه الله في تفسير قول الله عز وجل: (هدى للمتقين) البقرة 2: "الهداية نوعان: هداية البيان وهداية التوفيق. فالمتقون حصلت لهم الهدايتان, وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق, وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقة تامة" ص 40.

3- ص 47. وقد شرح الفسوق كذلك في ص 91.

4- (وما يُضلّ به إلا الفاسقين) البقرة 26: "الفسق نوعان: نوعٌ مُخْرِجٌ من الدّين، ونوعٌ غير مُخْرِجٍ عن الإيمان كما في قولــه تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا) الآية" ص 47.

5- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (فتاب عليه إنه هو التوّاب الرحيم) البقرة 37: "توبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبولــه للتوبة؛ إذا اجتمعت شروطها ثانيا" ص 50. وذكر نحو ذلك ص 350.

6- قال رحمه الله في تفسير قول الله عز وجل: (وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله) البقرة 102: "الإذن نوعان:إذنٌ قــدري، وهو المتعلّق بمشيئة الله: كما في هذه الآية، وإذنٌ شرعيٌّ كما في قوله في الآية السابقة:(فإنه نزّله على قلبك بإذن الله)" ص 60.

7- قال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرض أُعدَّت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عنَ النــاس والله يحِــب المحــسنين) آل عمــران 133-134: "الإحسانُ نوعان: الإحسانُ في عبادة الخالق، والإحسانُ إلى المخلوق. فالإحسانُ في عبادة الخالق فسَّرَها النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقوله: (أن تعبدَ الله كأنك تراه؛ فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك)، وأما الإحسانُ إلى المخلوق: فهو إيصالُ النفــع الــديني والدنيوي إليهم ودفعُ الشرِّ الديني والدنيوي عنهم؛ فيدخلُ في ذلك أمرُهم بالمعروف ونهيُهم عن المنكر وتعليــمُ جــاهلهم ووعظُ غافلهم والنصيحةُ لعامتهم وخاصتهم والسعيُ في جمع كلمَتهم وإيصالُ الصدقات والنفقات الواجبة والمستحَبة إليهم على اختلافِ أحوالِهم وتبايُنِ أوصافِهم؛ فيدخل في ذلك بذلُ النّدَى وكفُّ الأذى واحتمالُ الأذى كما وصفَ الله به المتقين في هذه الآيات؛ فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحقِّ الله وحقِّ عبيده". ص 148-149.

8- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (وبالوالدين إحسانا) البقرة 83: "أي أحسنوا بالوالدين إحسانا، وهذا يعــم كــلَّ إحسانٍ قوليٍّ وفعليٍّ مما هو إحسانٌ إليهم، وفيه النهيُ عن الإساءة إلى الوالدين أو عدمُ الإحسان والإســاءة؛ لأن الواجــبَ الإحسانُ والأمر بالشيء نهيٌ عن ضدِّه. وللإحسان ضدان: الإساءةُ وهي أعظمُ جُرماً وتركُ الإحسان بدون إساءة؛ وهــذا محرمٌ لكنْ لا يجب أن يلحقَ بالأول. وكذا يقال في صلةِ الأقاربِ واليتامى والمساكين. وتفاصيلُ الإحسانِ لا تنحصرُ بالعَد بل تكون بالحد". ص57.

9- قال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (وبالوالدَين إحسانا) النساء 36: "أي أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف والفعلِ الجميل بطاعة أمرِهما واجتناب نهيهما والإنفاق عليهما وإكرامِ من له تعلقٌ بهما وصلةِ الرَّحم التي لا رَحِــمَ لَــك إلا بهما. وللإحسان ضدان: الإساءة وعدمُ الإحسان؛ وكلاهما مَنهيٌّ عنه". ص 178.

و(القُنوت نوعان) ص 64،[1] و(الحِفظ نوعان) ص 71،[2] و(المعيّـة عامـةٌ وخاصّةٌ)[3]. والخراب (حِسِّيٌّ ومَعْنَويٌّ).[4] و(الناس على قـسمين: مـستجيبٌ لربه... وغير مستجيب). ص 416.[5]

و(الناس عند المصائب قـسمان) ص 76،[6] و(البدعـة نوعـان) 77-88،[7] و(الدعاء نوعان، والقرب نوعان) ص 87،[8] و(الأرزاق دُنيويَّةٌ وأُخرويَّةٌ) ص

1- قال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزّ وجل: (بلْ له ما في السموات والأرض كلٌّ له قانتون) البقرة 116: "القنوتُ نوعـان: قنوتٌ عامٌ :وهو قنوتُ الخلقِ كلِّهم تحت تدبير الخالق، وخاصٌّ: وهو قنوت العبادة. فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:(وقوموا لله قانتين)" ص64.

2- فقد قال في تفسير قول الله عز وجل: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) البقرة 143"في هذا بشارةٌ عظيمةٌ لمن مـنّ الله علـيهم بالإسلام والإيمان؛ بأنّ الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه, وحفظه نوعان: حفظٌ عن الضّياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مُفْسد ومُزيلٍ له ومُنْقصٍ من المحن المُقلقة, والأهواء الصادّة, وحفظٌ له بتنميته لهم, وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويـتمّ بـه إيقانهُم؛ فكما ابتدأكمَ بأن هداكم للإيمان, فسيحفظه لكم, ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه, وحفظه من كل مكدِّرٍ, بل إذا وُجدَتْ المحن التي المقصودُ منها تبيينُ المؤمنِ الصادقِ من الكاذب؛ فإنها تمحّص المؤمنين وتُظْهِر صدْقهم" ص 71.

3- قال رَحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (إنّ الله مع الصّابرين)البقرة 153:" أي: مع من كان الصّبرُ لهم خلقاً وصفةً، وملَكةً بمعونته وتوفيقه وتسديده؛ فهانت عليهم بذلك المشاقّ والمكاره، وسهل عليهم كلّ عظيم، وزالتْ عنهم كلّ صعوبة؛ وهـذه معيّةٌ خاصّةٌ تقتضي محبّتَه ومعونتَه ونصرَه وقربَه، وهذه منقبةٌ عظيمةٌ للصّابرين؛ فلو لم يكن للصابرين فضيلةٌ إلا أنهم فـازوا بهذه المعيّة من الله لكفى بها فضلاً وشرفاً، أما المعيّة العامّة فهي معيّة العلم والقدرة، كما في قوله تعالى:(وهو معكم أينما كُنتم) وهذه عامّةٌ للخلق" ص 75.

4- ذكر ذلك في تفسير قول الله تعالى: (ومن أظلمِ ممَّن منعَ مساجدَ الله أن يُذكَرَ فيها اسْمُه وسعى في خرابها) البقـرة 114، فقال رحمه الله: "(وسعى) أي: اجتهد وبذل وُسعَه (في خرابها): الحسّي والمعنويّ؛ فالخراب الحسّي: هدمُها وتخريبُها وتقذيرُها، والخرابُ المعنويّ: منعُ الذاكرين لاسم الله فيها. وهذا عامٌّ لكلّ من اتصف بهذه الصفة. فيدخل في ذلك أصـحابُ الفيـل وقريشٌ حين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس وغيرهم من أنـواع الظلمة الساعين في خرابها، محادّةً لله، ومشاقةً!" ص 63.

5- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعـاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب) الرعد 18: "الناس على قسمين: مستجيب لربـه؛ فـذكر ثوابَـه، وغـير مستجيب؛ فذكر عقابَه). ص 416

6- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (ولنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات) البقرة 155: "فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين, فالجازع حصلت له المُصيبتان: فواتُ المحبوب وهو وجود هذه المصيبة, وفوات ما هو أعظم منها: وهو الأجر بامتثال أمر الله بالصبر؛ ففاز بالخسارة والحرمان, ونقص ما معه من الإيمـان, وفاته الصبر والرّضا والشكران, وحصل له السخط الدّال على شدّة النقصان" ص 76.

7- قال رحمه الله: "فأما السعيُ والوقوفُ بعرفة ومزدلفة ورميُ الجمار فإنها تتبعُ النسكَ؛ فلو فُعلَتْ غيرَ تابعة للنـسك كانـت بدعةً؛ لأن البدعةَ نوعان: نوعٌ يُتعبَّد لله بعبادةٍ لم يشرَعْها أصلا، ونوعٌ يتعبدُ له بعبادة قد شرَعَها على صفةٍ مخصوصةٍ؛ فتفعلُ على غيرِ تلك الصفة، وهذا منه". ص77.

8- قال رحمه الله في تفسيرِ قول الله عز وجل: (وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أُجيب دعوة الـدّاع إذا دعـان) البقـرة 186:"الدّعاءُ نوعان: دعاءُ عبادة، ودعاءُ مسألة. والقربُ نوعان: قربٌ بعلمِه من كلّ خَلْقِه، وقربٌ من عابديـه وداعيـه بالإجابة والمعونة والتوفيق"ص 87.

95،[1] و(الظلم ثلاثة أقسام) ص 102،[2] و(مُعامَلة النـــاس فيمـــا بيـــنَهم علـــى درجتين) ص 105، و(القلب يعرض له مرَضان)،[3] و(النفقة يعرض لها آفتان) ص 114،[4] و(الخسران منه ما هو كُفْرٌ ومنه ما هو دون ذلك) ص 48. و(أكل أموال الناس نوعان).[5] و(العلم نوعان). ص484.[6] و(النـــصرُ علـــى قِسمَين). ص 338.[7]

1- قال السعدي رحمه الله: "لما كانت الأرزاقُ الدنيوية والأخروية لا تحصلُ إلا بتقديرِ الله ولن تنالَ إلا بمشيئة الله قال تعـالى: (والله يرزق من يشاء بغير حساب)؛ فالرزقُ الدنيوي يحصلُ للمؤمن والكافر، وأما رِزقُ القلوب من العلمِ والإيمانِ ومحبةِ الله وخشيته ورجائه ونحو ذلك فلا يُعطيها إلا من يحب". ص95.

2- قال السعدي رحمه الله: "الظلم ثلاثة أقسام: ظلمُ العبد فيما بينه وبين الله، وظُلمُ العبدِ الأكبر الذي هو الشركُ، وظُلمُ العبد فيما بينَه وبين الخلقِ. فالشركُ لا يغفرُه الله إلا بالتوبةِ، وحقوقُ العباد لا يترك الله منها شيئا، والظلمُ الذي بين العبد وربِّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة". ص102.

3- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) البقرة 10: "قوله: (في قلوبهم مـــرض) والمـــراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق؛ لأنَّ القلب يعرض له مرضان يُخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة, ومرض الشهوات المُردية, فالكفر والنفاق والشكوك والبدع:كلّها من مرضِ الشبهات, والزنا ومحبـــة الفـــواحش والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات, كما قال تعالى: (فيطمع الذي في قلبه مرض) وهي شهوة الزنا, والمُعافى من عُوفي من هذين المَرَضين, فيحصل له اليقين والإيمان, والصبر عن كل معصية؛ فَرَفَلَ في أثواب العافية" ص42.

4- قال السعدي رحمه الله: "النفقةُ يعرضُ له آفتان: إما أن يقصدَ الإنسانُ بها محْمَدَةَ الناس ومدحَهم وهو الرياء، أو يخرجها على خَوَرٍ وضعف عزيمة وتردُّد". ص 114.

5- قالَ رحمه الله في تفسير قَوْل الله تعالى: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحُكّام لتأكلوا فريقاً مـــن أمـــوال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) البقرة 188: "لما كان أكلُها نوعين :نوعاً بحق، ونوعاً بباطل، وكان المحرَّم إنما هو أكلها بالباطل؛ قيّده تعالى بذلك، ويدخل في ذلك أكلُها على وجه الغصب والسّرقة والخيانة في وديعة أو عارية، أو نحو ذلك. ويدخل فيـــه أيضاً أخذها على وجه المعاوَضة بمعاوَضة محرَّمة: كعقود الرِّبا والقمار كلّها. فإنها من أكْل المال بالباطل؛ لأنه ليس في مقابلـــة عوضٍ مُباح. ويدخل في ذلك أخذُها بسَبب غشٍّ في البيع والشّراء والإجارة ونحوها. ويدخل في ذلك اســـتعمالُ الأُجَـــراء وأكلُ أجرهم، وكذلك أخذُهم أجرةً على عملٍ لم يقوموا بواجبه. ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصحّ؛ حتى يقصد بها وجه الله تعالى. ويدخلُ في ذلك الأخذُ من الزكوات والصّدقات والأوقاف والوصايا لمن ليس له حقٌّ منها، أو فوق حقه. فكلُّ هذا ونحوه من أكل المال بالباطل؛ فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى لو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلَها بالباطل بحُجّة غلبتْ حُجّة المُحقِّ، وحكم له الحاكم بذلك؛ فـــإنّ حُكـــم الحاكم لا يُبيح محرّماً ولا يُحلّل حراماً؛ إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائقُ الأمور باقيةٌ، فلـــيس في حكـــم الحـــاكم للمبطل راحةٌ ولا شبهةٌ ولا استراحة" ص 88 .

6- قال رحمه الله: "العلمُ الذي يُعلِّمُه الله لعباده: نوعان: علمٌ مُكتسَبٌ يُدركُه العبدُ بجدِّه واجتهاده، ونوعُ علمٍ لَدُنّي يَهبُـــه الله لمن يَمُن عليه من عباده؛ لقوله: (وآتيناه من لدنَّا علما)". ص 484 في فوائد قصة موسى مع الخضر عليهما الســـلام. وزاد كذلك أن "العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير... وما سوى ذلك فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائـــدة؛ لقولـــه: (أن تعلّمَني مما عُلِّمْتَ رُشْداً)". ص 484.

7- فقد قال رحمه الله: "النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوِّهم... والثاني: نصر المستَضْعَف الذي طمع فيـــه عدوُّه القادر؛ فنصرُ الله إياه: أن يرد عنه عدوَّه ويدافع عنه". ص 338.

و(الحقوقُ ثلاثة). ص 189.[1] و(العُبودية لله نوعان). ص586.[2] و(الطهارة المعنوية والحسِّيَّة) ص 352.[3] و(الآيات القرآنيـــة والأُفُقيـــة والنفـــسية) ص 358. و(الحكْم القَدَري والدينِي والجزائي) ص 357-358.

و(الصبر النافع... والصبر المشترك). ص 417.[4]

1- قال رحمه الله: "الحقوقُ ثلاثة: حقٌ الله تعالى لا يكون لأحد من الخلق: وهو عبادة الله والرغبة إليه وتوابع ذلك. وقسمٌ مختصٌ بالرسول: وهو التعزيرُ والتوقيرُ والنصرةُ. وقسمٌ مُشترَكٌ: وهو الإيمان بالله ورسولِه ومحبتُهما وطاعتُهما، كما جمعَ الله بين هذه الحقوق في قوله: (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزِّرُوه وتُوقِّرُوه وتسبِّحُوه بُكرةً وأصِيلا)". ص 189.

2- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (وعباد الرحمن..) الفرقان 63: " العُبودية لله نوعان: عُبوديةٌ لربوبيَّته؛ فهذه يـــشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرُهم برُّهم وفاجرُهم،؛ فكلُّهم عبيدٌ لله مربوبون مدبَّرون، (إنْ كلُّ مَن في السموات والأرض إلا آتِي الرحمن عبدا). وعُبوديةٌ لألوهيته وعبادته ورحمتِه، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا؛ ولهذا أضافها إلى اسمه (الرحمن)؛ إشارةً إلى أنهم إنما وصلوا إلَى هذه الحَال بسبب رحمته...". ص 586.

3- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (والله يحب المطَّهِّرين) التوبة 108: "(والله يُحبُّ المطَّهِّرين) الطهارة المعنوية: كـــالتنزه من الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث". ص 352.

4- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (والذين صبروا ابتغاء مرضاةِ وجهِ ربِّهم) الرعد 22: "الصبر النافع الذي يحبس بـــه العبد نفسَه طلباً لمرضاة ربه ورجاءً للقرب منه والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان. وأمـــا الـــصبر المشترَك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر؛ فهذا يصدر من البَر والفاجر والمؤمن والكافر؛ فليس هو الممدوحَ على الحقيقة". ص 417. وانظر صدقَ ما قاله الشيخ رحمه الله في قول الله عز وجل: (ولا تهنوا في ابتغاءِ القومِ إنْ تكونوا تـــألَمُون فـــإنهم يألَمُون كما تألَمُون وترجُون من الله ما لا يَرجُون). النساء 104؛ فشتان بين صبر أصحابِ الإيمان وصبرِ أصحاب الـــنيران! وصبرِ أهلِ التقوى وأهل الحمِية!

المبحث الخامس
عناية السعدي باللغة وجمال الأسلوب

[1] إنَّ الشيخَ السعديَّ رحمه الله قد وُفِّق في إدراكِ أسرارِ التراكيب؛ وما ذاك إلا لِشدَّةِ إلمامِه بفُنونِ البلاغةِ وقواعدِ اللغة وأسرارِ العربيّة:

فقد جاء تفسيرُهُ زاخِراً بالصناعةِ اللغويَّة المُعِينة على فهمِ القرآن، واستفادتُه ظاهرةٌ مِن ابنِ القيم رحمه الله. بل إنَّك حين تقرأ للسعدي رحمه الله تجدُ نَفَسَ ابنِ القيم وربَّانيَّتَه ومنهَجَه رحمة الله عليهما.[1]

فقد قال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (أولئك على هُدًى مِن ربِّهم): "أي: على هُدى عظيم؛ لأنَّ التنكيرَ للتعظيم, وأيُّ هدايةٍ أعظمُ من تلك الصفاتِ المذكورة المتضمِّنة للعقيدةِ الصحيحة والأعمالِ المستقيمة... وأتى بـ(على) في هذا الموضعِ الدَّالة على الاستعلاء, وفي الضلالة يأتي بـ(في) كما في قوله: (وإنَّا أو إياكم لَعَلَى هُدًى أو في ضَلالٍ مُبِين)؛ لأنَّ صاحِبَ الهدى مُستَعْلٍ بالهدى, مُرْتَفِعٌ به, وصاحبُ الضَّلالِ مُنْغَمِسٌ فيه مُحْتَقَرٌ"! ص 41.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (ولكم في القصاص حَياةٌ يا أُولِي الألبابِ لعلَّكم تتقُون) البقرة 179: "ونكَّرَ (الحياة)؛ لإفادة التعظيم والتكثير". ص85.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (ولئن اتبعتَ أهواءهم) البقرة 145: "إنما قال: (أهواءهم)، ولم يقلْ (دينهم)؛ لأنَّ ما هم عليه مُجَرَّدُ أهْوِيةِ نَفسٍ، حتى هُم في قلوبِهم يعلمُون أنه ليس بدينٍ، ومَن تركَ الدِّينَ اتبعَ الهوى ولا مَحالة؛ قال تعالى: (أفرأيتَ مَن اتخذَ إلَهَه هَواه)". ص 72.

وقال رحمه الله في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: (صِبغةَ الله ومَن أحْسنُ مِن الله

1- والسعدي يعزو إلى ابن القيم رحمهما الله تعالى في بعض المواضع كما سيأتي.

صبغةً ونحن له عابِدُون): "في قوله: (ونحن له عابِدُون)... فتقديمُ المعمـول يُؤْذِن بالحصر". ص 69. أي إنَّ تقديمَ الجارِ والمجرور (له) في (ونحن لـه عابِدُون) يفيد الحصر: أي نعبدُه وَحْدَه لا شريكَ له، كما ذكـر أنَّ "التقـديمَ للاهتمام". ص 167.

ونصَّ رحمه الله على أنَّ مِن معاني (الاستفهام) التعجُّب والإنكار والتـوبيخ. ص 48، وأنّ (حتى) للغاية. ص87، و(كلما) تقتـضي التكـرار. ص 60، و(الباء) للسَّبَبِيَّة ص 136. واسم الفاعل يدلُّ على الثُّبوتِ والاسـتقرار. ص 69-72. كما ذكر الدلالة البلاغيَّة لِوُرودِ التخصيصِ بعد التعميم. ص 48-50. ودلالة الإبهامِ وعدمِ التعيينِ على إرادةِ العُموم. ص 161-176.

كما ذكرَ الفُروق اللغوية: بين (الجور) و(الجنف) و(الإثـم) ص 86، وبـين (كَسَب) و(اكتَسَب) ص120، وبين (الخطأ) و(النـسيان) ص 120. وفـرَّقَ رحمه الله بين (فِعْلِ) الخيرات و(المسابَقَةِ إليها) في تفسيرِ قـولِ الله تعـالى: (فاستبِقُوا الخيرات) البقرة 148 فقال: "الأمرُ بالاستباقِ إلى الخيـرات أمـرٌ زائدٌ على الأمرِ بفعلِ الخيرات؛ فإنَّ الاستِباقَ إليها يتضمَّنُ فِعلَهـا وتكميلَهـا, وإيقاعَها على أكملِ الأحوال, والمبادَرةَ إليها, ومَن سـبقَ فـي الـدنيا إلـى الخيرات فهو السابقُ في الآخرة إلى الجنات". ص 73.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (تلك حُدُودُ الله فلا تقرَبُوها) البقـرة 187: "أبلغُ من قوله: [فلا تفعلوها]؛ لأنَّ القُربانَ يشملُ النَّهيَ عن فِعلِ المحرَّم بنفسه، والنَّهي عن وسائله الموصِلة إليه. والعَبدُ مـأمورٌ بتـرك المحرَّمـات، والبُعدِ منها غايةَ ما يُمكِنُه، وترك كلِّ سَببٍ يدعو إليها، وأمَّا الأوامرُ فيقولُ الله فيها: (تلك حُدُودُ الله فلا تعتدُوها)؛ فينهَى عن مُجاوَزَتها". ص 87.

[2] إنَّ الشيخَ قد أُوتِيَ مِن جمالِ الأسلوبِ وحلاوةِ اللغةِ ما يُوجِـب الحُـبَّ، ويأخذ اللُّبَّ، ويسحر القلب؛ فجمع للهِ دَرُّه بين كمالِ المبنَى وجلالِ المعنَـى:

مُتمثِّلاً ما شرحَ به قولَ الله تعالى: (وإنَّ فريقاً منهم ليكتمُـون الحـقَّ وهـم يعلمون) البقرة 146: "فالعالِمُ عليه إظهارُ الحقِّ وتبيينُه وتزيينُه؛ بكلِّ ما يقدِرُ عليه مِن عِبارةٍ وبُرهانٍ ومِثالٍ, وغير ذلك". ص 72.

فمِن أمثلة ذلك قولُه رحمه الله في (الذي استَوقَدَ ناراً): "فبينما هـو كـذلك إذْ ذهبَ الله بِنُورِه, فذهبَ عنه النُّورُ وذهبَ معه السُّرور, وبقـيَ فـي الظُّلمـةِ العظيمةِ والنارِ المحرقة؛ فذهب ما فيها مِن الإشْراق, وبقي مـا فيهـا مـن الإحْراق؛ فبقي في ظُلماتٍ مُتعدِّدة: ظُلمة الليل, وظُلمـة الـسحاب, وظُلمـة المطر, والظُّلمة الحاصِلة بعد النور؛ فكيف يكون حال هذا الموصُوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون". ص44.

ومنه قوله رحمه الله: "فيكون بذلك من الصالحين الذين يـصلحون لِمُجـاوَرَة الرحمنِ في جَنتِه". ص46.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (تلك أُمَّةٌ قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولكم ما كَسَبتُم) البقرة141 "فالنفعُ الحقيقيُّ بالأعمال؛ لا بالانتِـسابِ المجـرَّدِ للرِّجال"! ص 70.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (والسَّحاب المـسخَّر) البقـرة 164: "فيُنْزِله رحمةً ولُطفاً, ويصرفُه عِنايةً وعَطفاً, فمـا أعْظـمَ سُـلطانَه! وأغْزَرَ إحسانَه! وألطَفَ امتِنانَه"! ص 79.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قول الله تعالى: (وإذا قيلَ لهم اتَّبعوا ما أنـزلَ الله قالوا بل نتَّبعُ ما ألْفَيْنا عليه آباءنا) البقرة 170: "فاكتَفَوْا بتقليدِ الآباء, وزَهِدُوا في الإيمان بالأنبياء"! ص81.

وقوله رحمه لله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (يومَ تَبْـيَضُّ وُجُـوهٌ وتَـسْوَدُّ وُجُوه) آل عمران 106: "هؤلاء اسْوَدَّتْ وُجُوهُهم بما في قُلُوبِهم مِن الخزيِ والهوانِ والذِّلَّةِ والفضيحةِ, وأولئك ابيَضَّتْ وُجُوهُهم؛ لما فـي قلـوبِهم مِـن

البَهجة والسُّرُور والنعيم والحبور الذي ظَهرتْ آثارُه على وُجُوهِهم، كما قال تعالى: (ولقَّاهم نَضْرةً وسُرورا): نَضْرةً في وُجُوهِهم، وسُرُوراً في قُلُوبِهم، وقال تعالى: (والذين كَسَبوا السيِّئاتِ جَزاءُ سيِّئةٍ بمثلِها وترهَقُهم ذِلَّةٌ كأنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهم قِطَعاً من الليلِ مُظلِماً أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون). ص 142-143. وقال نحو ذلك في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (ويومَ القيامةِ ترى الذين كذبوا على الله وُجُوهُهم مُسْوَدة) [الزمر 60]: "يخبر تعالى عن خزيِ الذين كذبوا عليه وأنَّ وجوهَهم تكون يومَ القيامة مُسودَّةً كأنها الليلُ البهيمُ؛ يعرفهم بذلك أهل الموقف؛ فالحقُّ أبلجُ واضحٌ كأنه الصبحُ! فكما سوَّدُوا وجهَ الحقِّ بالكذبِ؛ سَوَّدَ الله وُجوهَهم جزاءً من جنسِ عَملِهم؛ فلهم سَوادُ الوجوهِ ولهم العذابُ الشديدُ في جهنم". ص728

وكذلك الحالُ فيما ينقلُه السعدي رحمه الله عن غيرِه بنَقدٍ وذَوقٍ؛ كقوله عليه رحمة الله في تفسيرِ آل عمران: (إنَّ أوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ للناسِ للَّذي بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدًى للعالمين): "وقد رأيتُ لابنِ القيِّم هاهنا كلاما حَسناً أحبَبتُ إيرادَه؛ لِشدَّةِ الحاجةِ إليه..."فذكر مقالةً طويلةً في نحو صفحتين، جاء في آخرها: "ولو لم يكن له شَرفٌ إلا إضافتُه إياه إلى نفسِه بقوله: (وطهِّرْ بيتي)؛ لكفَى بهذه الإضافة فَضلا وشَرَفاً، وهذه الإضافة هي التي أقبلَتْ بقلوبِ العالمين إليه، وسَلَبَتْ نُفُوسَهم؛ حُباً له وشوقاً إلى رؤيته؛ فهذه المثابةُ للمُحبِّين يَثُوبُون إليه ولا يقضُون منه وَطَراً أبداً! كلما ازدادوا له زيارةً؛ ازدادوا له حُبّاً وإليه اشتياقاً! فلا الوصالُ يَشْفيهم، ولا البِعادُ يُسَلِّيهم. كما قيل:

أطُوفُ به والنفسُ بعدُ مَشوقةٌ إليهِ وهل بعد الطوافِ تدانِ؟
وألثمُ منه الرُّكنَ أطلبُ بَرْدَ ما بِقلبِيَ من شَوقٍ ومن هَيَمانِ!
فوالله ما أزْدادُ إلا صَبابةً ولا القلبُ إلا كثرةَ الخَفَقانِ!"

حتى ذكر اثنَيْ عشَرَ بيتاً من عُيونِ الشعر! ص 140-141.

[3] العناية بحسنِ الأدبِ في الألفاظ:

كما قال السعدي رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل حِكايةً عـن عيسى عليه السلام: (إنْ كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلمُ ما في نفسي ولا أعلـمُ مـا في نفسك): "فأنتَ أعلمُ بما صدرَ منِّي (إنك أنتَ علامُ الغُيوب). وهذا من كمـالِ أدبِ المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابِه لربِّه؛ فلم يقلْ عليه السلام: [لـم أقلْ شيئا من ذلك]، وإنما أخبرَ بكلامٍ ينفي عن نفسِه أن يقولَ كلَّ مقالةٍ تُنـافي منصبَه الشريف، وأنَّ هذا من الأمورِ المحالة ونزَّهَ ربه عن ذلك أتـم تنْزِيـهٍ وردَّ العِلمَ إلى عالِمِ الغيبِ والشهادة". ص249.

وقال رحمه الله في فوائدِ قصة الخليلِ عليه السلام مع أضيافِه[الـذاريات24-37]: "منها: أدبُ إبراهيم ولطفُه في الكلامِ حيث قال: (قومٌ مُنكَـرُون)، ولـم يقل: [أنكرتكم]؛ وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى!" ص810.

وقال رحمه الله في أدبِ أهلِ الجنة فـي خطـابِهم [الواقعـة 25-26]: "(لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً): أي لا يسمعون في جنات النعيم كلاما يلغى ولا يكون فيه فائدة ولا كلاماً يؤثم صاحبُه (إلا قيلا سلاماً سلاماً): أي إلا كلامـاً طيِّباً؛ وذلك لأنها دارُ الطيِّبين ولا يكون فيها إلا كلُّ طيِّب، وهذا دليلٌ علـى حُسنِ أدبِ أهلِ الجنة في خطابِهم فيما بينَهم وأنه أطيبُ كلامٍ وأسَرُّه للقلـوبِ وأسلمُه من كلِّ لَغوٍ وإثْمٍ؛ نسأل الله من فضلِه أنْ يجعلَنا مـن أهـل الجنـة". ص833.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ يوسف عليه الـسلام: (وقـد أحـسنَ بـي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم مِن البدوِ مِن بعدِ أنْ نزغَ الشيطانُ بيني وبـين إخوتي) [يوسف100]: "هذا من لُطفِه وحُسنِ خطابِه عليه السلام؛ حيث ذكـر حالَه في السجن ولم يذكرْ حالَه في الجبِّ؛ لِتَمامِ عَفوِه عن إخوتِـه، وأنـه لا يذكر ذلك الذنبَ وأنَّ إتيانَكم من البادية من إحسانِ الله؛ فلم يقلْ: [جاء بكم من

الجوع والنصب] ولا قال: [أحسنَ بكم] بل قال: (أحسنَ بي)؛ جعلَ الإحسانَ عائدا إليه؛ فتبارك من يختصُّ برحمتِه من يشاء من عبادِه ويَهَبُ لهم من لَدُنْهُ رحمةً؛ إنه هو الوهاب! (من بعد أنْ نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي)؛ فلم يقلْ: [نزغَ الشيطانُ إخوتي]! بل كأنَّ الذنبَ والجهلَ صدرَ من الطرفَيْن؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطانَ ودَحَرَه وجَمَعَنا بعد تلك الفُرْقة الشاقة". ص 405.

وقال رحمه الله في قصةِ الخضر عليه السلام: "ومنها: استعمالُ الأدبِ مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإنَّ الخضرَ أضاف عَيبَ السفينةِ إلى نفسِه بقوله: (فأرَدتُ أنْ أعيبَها)، وأما الخيرُ فأضافَه إلى الله تعالى لقوله: (فأرادَ ربُّك أنْ يبلُغا أشدَّهما ويستخرِجا كنْزَهما رحمةً من ربك)، كما قال إبراهيم عليه السلام: (وإذا مرضتَ فهو يشفين)، وقالت الجن: (وأنَّا لا ندري أشرٌّ أُريدَ بمن في الأرضِ أم أراد بهم ربهم رشَداً)؛ مع أنَّ الكلَّ بقضاءِ الله وقدَرِه". ص485.

وقال السعدي رحمه الله في الذين أساؤوا الأدبَ في مُخاطبةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الذين ينادونك من وراءِ الحجراتِ أكثرُهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرجَ إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيمٌ) [الحجرات4-5]: "نزلت هذه الآياتُ الكريمة في ناسٍ من الأعرابِ الذين وصفَهم الله بالجفاء وأنهم أجدرُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله؛ قدموا وافدين على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم؛ فوجدوه في بيتِه وحجراتِ نسائه فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرجَ؛ بل نادَوه يا محمد يا محمد! أي اخرجْ إلينا؛ فذمَّهم الله بعدمِ العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدبَ مع رسولِه واحترامه كما أنَّ من العقل استعمال الأدب؛ فأدبُ العبدِ عنوانُ عقله". ص799.

المبحث السادس
اهتمام السعدي بالفقه الدعوي والاجتماعي

[1] إنَّ (تيسيرَ الكريمِ الرحمن) قد تضمَّنَ رُوحَ الشفقةِ على الخلق، والعطف على الفقراء، ومحبّة المساكين؛ وهذا يبيّن لنا مقدارَ الوعيِ بضرورة الإصلاحِ الاجتماعي عند السعدي رحمه الله تعالى.

وتأمَّلْ قولَه في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (وآتى المالَ على حبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين) البقرة 177: "ومِن اليتامى الذين لا كاسِبَ لهم، وليس لهم قوةٌ يستغنون بها؛ وهذا مِن رحمتِه تعالى بالعباد؛ الدالة على أنه تعالى أرحمُ بعباده مِن الوالدِ بولده؛ فالله قد أوصى العباد، وفرضَ عليهم في أموالِهم الإحسانَ إلى من فُقِد آباؤهم؛ ليصيروا كمَنْ لم يفقدْ والديه، (والمساكين) وهم الذين أسكنتهم الحاجة، وأذلَّهم الفقر؛ فلهم حقٌّ على الأغنياء بما يدفع مَسْكَنَتَهم، أو يخففّها؛ بما يقدرون عليه وبما يتيسَّر (وابن السبيل) وهو الغريبُ المنقطِع به في غير بلده؛ فحثَّ الله عبادَه على إعطائه من المال ما يُعينُه على سفره؛ لكونه مَظِنّةَ الحاجة، وكثرة المصارف؛ فعلى مَن أنعمَ الله عليه بوطنِه وراحتِه وخوَّلَه مِن نعمتِه، أنْ يرحَمَ أخاه الغريبَ الذي بهذه الصفة على حَسَب استطاعتِه، ولو بتزويدِه أو إعطائه آلةً لسَفرِه، أو دفع ما يَنُوبُه من المظالم أو غيرها" ص 83.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (والصابرين في البأساء) البقرة 177: "أي الفقر؛ لأنَّ الفقيرَ يحتاج إلى الصبرِ من وُجُوهٍ كثيرة: لكونه يحصلُ له من الآلام القلبيّة والبدنيّة المستمرّة ما لا يحصل لغيره؛ فإنْ تَنعَّمَ الأغنياء بما لا يقدر عليه تألَّم، وإنْ جاع أو جاعتْ عِيالُه تألَّم، وإنْ أكلَ طعاماً غيرَ مُوافِقٍ لهواه تألَّم، وإنْ عَري أو كاد تألَّم، وإنْ نظرَ إلى ما بين يديه وما

يتوهَّمُه من المستقبل الذي يستَعِدُّ له تألّم، وإنْ أصابَه البردُ الذي لا يقدرُ على دَفْعِه تألَّم. فكلٌّ هذه ونحوُها مَصائبُ يُؤمَر بالصبرِ عليها والاحتسابِ ورجاءِ الثوابِ عليها من الله". ص 83.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (زُيِّن للناسِ حُبُّ الشهوات من النساءِ والبنين والقناطيرِ المقنطرةِ من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوَّمةِ والأنعامِ والحرثِ ذلك مَتاعُ الحياةِ الدنيا والله عندَه حُسْنُ المآب) آل عمران14: "في هذا تَسليةٌ للفقراء الذين لا قدرةَ لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتَحذيرٌ للمُغْتَرِّين بها، وتزهيدٌ لأهلِ العقولِ النيِّرة بها" ص 124.

[2] وتضمن هذا التفسير الجليل الحثَّ على الإحسان والتكافل:

فقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (وأحْسِنُوا إنّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِين) البقرة 195: "يدخل فيه الإحسانُ بالجاه: بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسانُ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس: من تفريج كرباتهم، وإزالة شدّاتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالِّهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يُحْسِن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمرَ الله به، ويدخلُ في الإحسان أيضاً الإحسانُ في عبادة الله" ص 90.

[3] إنَّ السعدي رحمه الله قد اعتنَى في تفسيرِه بالتماسك الاجتماعي، ونهى عن التفرُّق والتنازع، فقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (ولا تكونوا من المشركين من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شِيَعاً كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحُون): "في هذا تحذيرٌ للمسلمين مِن تشتُّتِهم وتفرُّقِهم فِرَقاً كلُّ فريقٍ يتعصبُ لما معه من حقٍّ وباطلٍ؛ فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق! بل الدينُ واحدٌ والرسولُ واحدٌ والإله واحدٌ وأكثرُ الأمور الدينية وقع

فيها الإجماعُ بين العلماء والأئمة! والأخوة الإيمانية قد عقدَها الله وربطَها أتمَّ ربطٍ؛ فما بالُ ذلك كله يُلغَى ويُبنَى التفرقُ والشقاقُ بين المسلمين على مسائلَ خَفِيةٍ أو فروعٍ خِلافية يُضلِّل بها بعضُهم بعضا ويتميز بها بعضُهم على بعض؟! فهل هذا إلا من أكْبرِ نزغاتِ الشيطان؟ وأعظم مقاصدِه التي كاد بها المسلمين؟ وهل السعيُ في جمعِ كلمَتِهم وإزالةِ ما بينَهم من الشِّقاق المبني على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضلِ الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟". ص641.

[4] اهتم السعدي رحمه الله بمعرفة العوائد والسنن:

كما في قوله رحمه الله: "مِن العَوائدِ القَدَرية والحكمةِ الإلهيةِ: أنَّ مَنْ ترَكَ ما يَنفَعُه وأمْكنَه الانتفاعُ به فلم يَنْتَفِعْ؛ ابتُلِيَ بالاشتغالِ بما يَضرُّه!" ص 60.

وقال في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (إذْ قالوا لِنَبِيٍّ لهم ابْعَثْ لنا مَلِكاً نُقاتِلْ في سبيلِ الله) البقرة 246: "لعلَّهم في ذلك الوقتِ ليس لهم رئيسٌ يجمعهم؛ كما جرَتْ عادةُ القبائلِ أصحابِ البيُوت، كلُّ بيتٍ لا يرضَى أنْ يكونَ من البيتِ الآخر رئيسٌ؛ فالتَمسُوا مِن نبيِّهم تَعْيِينَ مَلِكٍ يُرضي الطرفَيْن، ويكون تَعْيِينُه خاصّاً لِعَوائدِهم، وكانت أنبياءُ بنِي إسرائيل تَسُوسُهم كلما مات نبِيٌّ خَلَفَه نبِيٌّ آخر" ص 107.

وقال في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (لِيَقْطَعَ طرفاً مِن الذين كفروا أو يَكْبِتَهم فينقلِبُوا خائبين) آل عمران 127: "يُخْبِر تعالى أنَّ نَصْرَه عِبادَه المؤمنين لأحدِ أمرين: إمّا أنْ يقطعَ طرَفاً من الذين كفروا: أي جانباً منهم ورُكناً من أركانِهم: إما بقتلٍ، أو أسْرٍ، أو استيلاءٍ على بلدٍ، أو غنيمة مالٍ؛ فيقوى بذلك المؤمنون ويذلّ الكافرون... الأمر الثاني: أن يريد الكفار بقوّتِهم وكثرتِهم طمعاً في المسلمين ويُمَنُّوا أنفسَهم ذلك... فينصر الله المؤمنين عليهم ويردّهم خائبين لم ينالوا مَقصودَهم، بل يرجعون بخسارةٍ وغَمٍّ وحسرةٍ؛ وإذا تأمّلتَ

الواقع رأيتَ نصرَ الله لعبادِه المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غيرَ خارجٍ عنهما: إما نصرٌ عليهم، أو خذلٌ لهم". ص 146.

وقال في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (هُم لِلكُفرِ يومئذٍ أقرَبُ منهم للإيمان يقولُون بأفواهِهم ما ليس في قُلوبِهم) آل عمران 167: "هذه خاصَّةُ المنافقين؛ يُظهِرُون بِكلامِهم وفِعالِهم ما يُبْطِنُون ضِدَّه في قُلُوبِهم وسَرائرِهم". ص 156.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (يعلمون ظاهراً من الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرةِ هم غافِلُون) [الروم 7]: "ومن العَجبِ أنَّ هذا القسمَ من الناس قد بلغَت بكثيرٍ منهم الفطنةُ والذَّكاءُ في ظاهرِ الدنيا إلى أمرٍ يُحَيِّرُ العقولَ ويُدهشُ الألباب، وأظهروا من العجائب الذُّرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرَهم عاجزاً عما أقدَرَهم الله عليه؛ فنظروا إليهم بعينِ الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبْلَدُ الناسِ في أمرِ دينِهم وأشدُّهم غفلةً عن آخرتِهم وأقلُّهم معرفةً بالعواقب؛ قد رآهم أهلُ البصائر النافذة في جهلِهم يتخبطُون وفي ضلالِهم يعمهون وفي باطلِهم يتردَّدُون (نسُوا الله فأنساهم أنفُسَهم أولئك هم الفاسِقُون)". ص637.

[6] إنَّ الشيخَ السعدي رحمه الله كان عارفاً بواقعِه مُنبِّهاً على ما يَكيدُه أعداءُ الإسلام لهذا الدّين:

كما تراه في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (ولا يزالون يُقاتِلُونكم حتى يَرُدُّوكم عن دينِكم إن استطاعوا): "هذا الوصفُ عامٌّ لكلّ الكفار: لا يزالون يُقاتِلُون غيرَهم؛ حتى يردُّوهم عن دينِهم، وخُصُوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين بَذَلُوا الجمعيّات ونشروا الدُّعاةَ وبثُّوا الأطبّاء، وبَنَوا المدارسَ؛ لجذبِ الأمم إلى دينِهم، وتدخيلِهم عليهم كل ما يُمْكِنُهم من الشُّبَهِ التي تُشَكِّكُهم في دينِهم". ص 97.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قوةٍ ومن رباطِ الخيلِ ترهبونَ به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخَرين مِن دُونِهم لا تعلمونهم الله يعلمهم): "وأعِدُّوا لأعدائكم الكفارَ الساعِين في هلاكِكم وإبطالِ دينِكم (ما استطعتم من قوةٍ): أي كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يُعينُ على قتالِهم؛ فدخلَ في ذلك أنواعُ الصناعات التي تعملُ فيها أصنافَ الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم به شرُّ أعدائهم وتعلُّمُ الرمي والشجاعة والتدبير؛ ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (ألا إنَّ القوةَ الرمي)، ومن ذلك الاستعدادُ بالمراكبِ المحتاجِ إليها عند القتال؛ ولهذا قال تعالى: (ومن رباطِ الخيلِ ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم). وهذه العلةُ موجودةٌ فيها في ذلك الزمان، وهي إرهابُ الأعداء. والحكم يدورُ مع عِلَّتِه؛ فإذا كان شيءٌ موجوداً أكثر إرهابا منها كالسيارات البرية والهوائية المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشدَّ كانت مأموراً بالاستعدادِ بها والسعيِ لتحصيلِها حتى إنها إذا لم توجَدْ إلا بتعلُّمِ الصناعة وجبَ ذلك؛ لأن ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ"". ص324-325.

[6] إنّ السعديَّ رحمه الله قد سجَّلَ في تفسيرِه تجاربَ نافعةً مِن آدابِ السلوك وزهراتٍ يانعةً من فقه الدعوة:

كما في قوله رحمه الله: "إنَّ النفوسَ مجبولةٌ على عدمِ الانقيادِ لمن يُخالفُ قولُه فعلَه؛ فاقتداؤهم بالأفعالِ أبلغُ مِن اقتدائهم بالأقوالِ المجرَّدة" ص51.

وكذلك قوله رحمه الله: "هكذا كلُّ مُبْطلٍ يحتجُّ بآيةٍ أو حديثٍ صحيحٍ على قوله الباطلِ؛ فلا بدّ أن يكون فيما احتَجّ به حُجةٌ عليه" ص 57.

ومنه قوله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (ولئن أتيتَ الذين أُوتُوا الكتابَ بكلِّ آيةٍ

ما تبعُوا قِبلتَك) البقرة 145: "فالآياتُ إنما تنفعُ وتفيدُ مَن يتطلَّبُ الحقَّ وهــو مُشْتَبِهٌ عليه, فتوضح له الآيات البيِّنات, وأما مَن جزمَ بِعَدمِ اتباعِ الحقِّ؛ فــلا حِيلةَ فيه" ص 72.

وكذلك قوله رحمه الله في تفسير قولِ الله تعالى: (ألا إنّ نــصرَ الله قريــبٌ) البقرة 214: "فهكذا كلُّ مَن قام بالحق؛ فإنه يُمتَحَن؛ فكلمــا اشــتدَّتْ عليــه وصَعبتْ إذا صابر وثابر على ما هو عليه؛ انقلبَت المحنة في حقِّــه مِنْحــةً، والمشقَّاتُ راحاتٍ، وأعقبه ذلك الانتصارُ على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الدّاء!" ص 96.

ومنه قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (فبُهِتَ الــذي كفــر) البقــرة 258: "أي تحيَّر؛ فلم يرجعْ إليه جواباً، وانقطعتْ حُجَّتُه، وسَــقطَتْ شُــبْهتُه؛ وهذه حالةُ المبطِلِ المعاندِ الذي يريد أن يقاوِمَ الحقَّ ويُغالِبُه؛ فإنــه مَغلُــوبٌ مَقهُور" ص 111.

[5] إنّ السعدي رحمه الله قد بثَّ في تفسيرِه روحَ الجهاد، ونصرَ فيه عقيــدةَ الولاءِ للمسلمين والبراءِ من المشركين:

وما أحسنَ قولَه في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (ولا تقولوا لمن يُقتَلُ في سبيلِ الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعُرون) البقرة 154: "في هذه الآيةِ أعظمُ حَــثٍّ على الجهادِ في سبيلِ الله ومُلازمةِ الصبّرِ عليه؛ فلو شعرَ العبادُ بما للمُقاتلين في سبيلِ الله مِن الثوابِ؛ لم يَتخلَّفْ عنه أحدٌ! ولكنَّ عدمَ العلمِ اليقينيِ التامِّ هو الذي فَتَّرَ العزائم، وزاد نومَ النائم، وأفاتَ الأجورَ العظيمة والغنــائم؛ لِــمَ لا يكون كذلك والله تعالى قد (اشترى مِن المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بــأنَّ لهــم الجنةَ يُقاتِلُون في سبيلِ الله فيَقتُلون ويُقتَلُون)؟! فوالله لو كان للإنــسانِ ألــفُ نفسٍ تذهبُ نفساً نفساً في سبيلِ الله, لم يكن عظيماً في جانــبِ هــذا الأجــرِ العظيم؛ ولهذا لا يَتمنَّى الشهداء بعد ما عايَنُوا مِن ثوابِ الله وحُسْنِ جزائه إلا

أن يُرَدُّوا إلى الدنيا حتى يُقتَلُوا في سبيلِه مرةً بعد مرةً"! ص 75.

وكما في قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (وأنفِقُوا في سبيلِ الله) البقرة 195: "وأعظم ذلك، وأول ما دخل في ذلك الإنفاقُ في الجهاد في سبيل الله؛ فإنّ النفقةَ فيه جهادٌ بالمال، وهو فرضٌ كالجهاد بالبدن. وفيها من المصالح العظيمة: الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه؛ فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة؛ فالنفقة له كالروح لا يمكن وُجودُه بدونها. وفي ترك الإنفاق في سبيلِ الله إبطالٌ للجهاد، وتسليطٌ للأعداء، وشدّة تكالبهم؛ فيكون قوله تعالى: (ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكة) كالتعليل لذلك" ص 90.

وكما في قولِه رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (وعسى أن تكرَهُوا شيئاً وهو خَيْرٌ لكم) البقرة 216: "وذلك مثل القُعودِ عن الجهادِ لطلبِ الراحة؛ فإنه شرٌّ لأنه يُعْقِبُ الخذلانَ وتسلُّطَ الأعداءِ على الإسلامِ وأهلِه، وحُصولَ الذلِّ والهوانِ، وفواتَ الأجرِ العظيم، وحصولَ العقاب" ص 97.

وكما في قوله رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (قد كان لكم آيةٌ في فئتين التَقَتا فئةٌ تقاتِلُ في سبيلِ الله وأخرى كافرة) آل عمران 13: "فنصرَ الله المؤمنين وأيَّدهم بنصره؛ فهزَمُوهم... وما ذاك إلا لأنّ اللهَ ناصرٌ مَن نَصرَه، وخاذِلٌ مَن كفرَ به؛ ففي هذا عِبْرةٌ لأولي الأبصار: أي أصحاب البصائرِ النافذةِ والعقولِ الكاملةِ على أنّ الطائفةَ المنصورةَ معها الحقُّ والأخرى مُبْطِلةٌ، وإلا فلو نظرَ الناظرُ إلى مجرَّدِ الأسبابِ الظاهرةِ والعَدَدِ والعُدَد؛ لجزمَ بأنّ غَلَبَةَ هذه الفئة القليلةِ لتلك الفئةِ الكثيرةِ من أنواعِ المحالات، ولكنْ وراء هذا السببِ المشاهَدِ بالأبصارِ سَببٌ أعظمُ منه لا يُدْرِكُه إلا أهلُ البصائرِ والإيمانِ بالله والتوكُّلِ على اللهِ والثقةِ بكفايَتِه: وهو نَصرُه وإعْزازُه لِعبادِهِ المؤمنين على أعْدائه الكافرين" ص 123.

وما أحْسَنَ إشارَتَه البديعة في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (لَتُبْلَوُنَّ في أمْــوالِكم وأنفُسِكم ولَتَسْمَعُنَّ مِن الذين أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِكم ومِن الذين أشْــرَكُوا أذًى كثيراً وإنْ تَصْبِرُوا وتتَّقُوا فإنَّ ذلك مِن عَزْمِ الأمُورِ) آل عمــران 186: "أي إنْ تَصْبِرُوا على ما نالَكم في أموالِكم وأنفُسِكم مِن الابتلاءِ والامتحانِ وعلــى أذيَّةِ الظالمين، وتتقُوا الله في ذلك الصبر؛ بأنْ تَنْوُوا به وجهَ الله والتقرُّبَ إليه، ولم تَتَعَدُّوا في صَبْرِكم الحدَّ الشرعيَّ مِن الصَّبرِ في مَوضعٍ لا يحلُّ لكم فيــه الاحتِمالُ، بل وظِيفتُكم فيه الانتقامُ من أعداء الله!" ص 160.

المبحث السابع
براعة الاستنباط عند السعدي

[1] إنّ هذا التفسيرَ المباركَ قد تضمَّنَ لَفتاتٍ بارِعةً وإشاراتٍ مُستَلهَمَةً من وحيِ السياق القرآني:

مثل قول السعدي رحمه الله عند قولِ الله تعالى: (بل أكثَرُهم لا يؤمِنُون): "ولو صَدَق إيمانُهم؛ لكانوا مثلَ مَن قال الله فيهم: (مِن المؤمنين رِجالٌ صَدقُوا ما عاهدُوا الله عليه)!" ص60. وكذلك قوله رحمه الله في تفسير قولِ الله تعالى: (ومَن أظلمُ ممن منعَ مَساجِدَ الله أن يُذْكَرَ فيها اسْمُه وسَعَى في خَرابِها): "الحسِّي والمعنوي؛ فالخرابُ الحسِّي: هَدمُها وتخريبُها وتقذيرُها، والخرابُ المعنوي: منعُ الذاكرين لاسم الله فيها!" ص 63.

وكذلك قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (قُولُوا آمنَّا بالله): "وفي قوله: (قولُوا) إشارةٌ للإعلانِ بالعقيدة, والصَّدعِ بها، والدعوةِ لها؛ إذْ هي أصلُ الدينِ وأساسُه. وفي قوله: (آمَنَّا) ونحوه مما فيه صُدُورُ الفِعلِ مَنْسُوباً إلى جميعِ الأمةِ إشارةٌ إلى أنه يجب على الأمةِ الاعتصامُ بحبلِ الله جميعاً والحثُّ على الائتلاف؛ حتى يكون داعيهم واحداً, وعَمَلُهم مُتَّحِداً؛ وفي ضِمنِه النهيُ عن الافتراق, وفيه أنّ المؤمنين كالجسدِ الواحد" ص 67.

[2] إنّ الشيخ السعدي قد أبان ملَكةً عظيمةً مِن دِقةِ الاستنباطِ ورَوعةِ الاستدلالِ؛ بما يُذكِّر طالبَ العِلم بتفنُّنِ البخاري رحمه الله في تراجُمِ جامعِه الصحيح:

فقد قال السعدي رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (فإنْ طلَّقَها فلا جُناحَ عليهما أنْ يتراجَعا إنْ ظنَّا أنْ يُقيما حُدُودَ الله) البقرة230: "في هذا دلالةٌ على أنّه ينبغي للإنسانِ إذا أراد أنْ يَدخُلَ في أمرٍ مِن الأمورِ خُصوصاً الولايات

الصِّغارِ والكبارِ أنْ ينظرَ في نفسِه؛ فإنْ رأى مِن نفسِه قُوَّةً على ذلك، ووَثِقَ بها؛ أقدَمَ، وإلا أحْجَمَ" ص 103

ولك أنْ تتأمَّلْ شُفوفَ نَظَرِه؛ حيث قال في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (فاستَبِقُوا الخيرات) البقرة 148: "يُستدَل بهذه الآية الشريفة على الإتيانِ بكلِّ فضيلةٍ يتصفُ بها العمل: كالصلاة في أولِ وَقتِها, والمبادرةِ إلى إبراءِ الذمةِ مِن الصيامِ والحجِّ والعُمرةِ وإخراجِ الزكاة والإتيانِ بسنن العبادات وآدابها؛ فللهِ ما أجمعَها وأنفعَها مِن آية!" ص 73.

[3] إنَّ الشيخَ قد استفْرَغَ الوُسْعَ في عُمْقِ التدبُّرِ للآياتِ وشدّةِ العنايةِ بالفوائدِ والعِظات:

كيف وقد ذكرَ رحمه الله من الفوائدِ في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ثمانيَ وثلاثين فائدة. ص483-485. و في قصة موسى مع شعيب أربعَ وثلاثين فائدة. ص 618-619. وأورد في قصة يوسف عليه السلام سبعاً وأربعين فائدةً. ص 407-412.

وقد استَنبَطَ - لِلَّهِ دَرُّهُ - من آيةِ الوضوء في المائدة إحدى وخمسين فائدة ص221-224. ومِن آيةِ الدَّيْن (البقرة 282) خمسين فائدةً ثم قال مُعْتذراً: "فهذه الأحكامُ مما يُستَنبَط مِن هذه الآيةِ الكريمةِ على حَسَبِ الحالِ الحاضِرة والفهمِ القاصر؛ ولله في كلامِه حِكَمٌ وأسرارٌ يخصُّ بها من يشاء من عبادِه!" ص 119.

ولَكَ أن تتأمَّلَ هذه العِبَرَ التربوية والسياسية والاجتماعية النفيسة التي استنبطَها السعدي رحمه الله من قصةِ داود وجالُوت في سورة البقرة: "أولا: أنّ اجتماع أهل الكلمة والحلّ والعقد، وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورُهم وفهمه، ثم العمل به؛ أكبر سببٍ لارتقائهم وحصول مقصودِهم، ثانياً: أنّ الحقَّ كلما عُورِض وأُورِدَتْ عليه الشُّبَه ازداد وُضوحاً؛ وتميَّز، وحَصلَ

به اليقينُ التام، ثالثاً: أنّ العلمَ والرّأيَ مع القوّةِ المنفذّة: بهما كمال الولايات؛ وبِفَقْدِهما ــ أو بِفَقدِ أحدِهما ــ نُقْصانها وضررها، رابعاً: أنّ الاتّكال على النفسِ سَببٌ للفشلِ والخذلان، والاستعانة بالله والصّبر والالتجاء إليه سبب النصر، خامساً: أنّ مِن حكمةِ الله تعالى تمييزَ الخبيثِ مِن الطّيِّبِ والصادقِ من الكاذبِ والصابرِ مِن الجبان، سادساً: أنه تعالى لم يكن لِيَذَرَ العبادَ على ما هم عليه مِن الاختلاط وعدمِ التمييز، سابعاً: أنَّ مِن رحمتِه تعالى وسُنَنِه الجارية أن يدفعَ ضررَ الكفارِ والمنافِقين بالمؤمِنين المقاتِلين، ثامناً: أنه لولا ذلك لفسَدت الأرض؛ باستيلاءِ الكفرِ وشعائره عليها" ص109.

[4] إنّ السّعديَّ قد تَمَيَّزَ بِطُول النَّفَسِ وسعةِ الباع في ذكر المعاني الكثيرة المحتَمَلة:[1]

فقد قال في تفسيرِ قولِ الله عزّ وجل: (واذكروا نعمةَ الله عليكم وما أُنزِلَ عليكم من الكتابِ والحكمة) البقرة 231: "أي السُنَّة اللَّذَيْن بيَّن لكم بِهما طُرُقَ الخير ورَغَّبَكم فيها وطرق الشرِّ وحذَّرَكم إياها، وعرَّفَكم نفسَه ووقائعَه في أوليائه وأعدائه، وعلَّمَكم ما لم تكونوا تعلَمون، وقيل: المرادُ بالحكمةِ أسرارُ الشريعة؛ فالكتابُ فيه الحِكَم، والحكمةُ فيها بيانُ حكمةِ الله في أوامِرِه ونواهِيه. وكِلا المعنَيَيْن صحيحٌ" ص 103.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (هذا بيانٌ للناسِ وهدًى وموعظةٌ للمتقين) آل عمران 138: "لأنهم هم المُنْتفِعُون بالآيات؛ فتهديهم إلى سبيلِ الرشاد، وتَعِظُهم وتَزجُرُهم عن طريقِ الغَيِّ، وأما باقي الناس فهي بيانٌ لهم، تقوم به عليهم الحجّةُ من الله؛ ليهلكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنةٍ، ويحتمل أنّ الإشارة

1- ومن أمثلته ما جاء في ص 48-65-66-89-113-117-131.

في قوله: (هذا بيانٌ للناس) للقرآن العظيم، والذِّكرِ الحكيم، وأنه بيانٌ للنــاسِ عُموماً، وهُدًى ومَوعِظةٌ للمتَّقين خُصوصاً. وكلا المعنيَيْن حقٌّ" ص 149.
وكذلك قوله في تفسير (وليُمحِّص الله الذين آمنوا) آل عمران 119: "يُمَحِّص بذلك المؤمنين مِن ذُنوبِهم وعُيُوبِهم... وليُمحِّص الله أيــضا المــؤمنين مِــن غيرِهم مِن المنافقين" ص 50.

[5] إنّ السعديَّ رحمه الله قد اعتنى بمفهــوم الآيــات دون اقتــصار علــى مَنطُوقها؛ وفي هذا إثراءٌ لفقهِ دلالاتِ القرآن:
فمن ذلك قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (ويُحبُّون أن يُحْمَدُوا بما لم يَفعَلُوا)آل عمران 188: "دلَّت الآية بمفهومِها على أنّ مَن أحَــبَّ أنْ يُحمَــدَ ويُثنَى عليه بما فَعلَه مِن الخير واتباعِ الحق؛ إذا لم يكن قَصدُه بــذلك الريــاء والسمعة: أنه غير مذمومٍ؛ بل هو من الأمور المطلوبة التي أخبــر الله أنــه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خــواصّ خلقــه، وسألوها منه: كما قال إبراهيم عليه السلام (واجعلْ لي لِــسانَ صِــدْقٍ فــي الآخِرين)، وقال (سلامٌ على نُوحٍ في العالمين إنَّا كذلك نَجْزي المحسِنين)، وقد قال عِبادُ الرحمنِ (واجْعَلْنا لِلمُتقِين إماماً)؛ وهي مِن نِعَمِ الباري على عَبــده، ومِنَنِه التي تحتاج إلى الشُّكر" ص 161.
وللسعدي رحمه الله في (تيسير الكريم الرحمن) عِنايةٌ فائقةٌ بالمفــاهيم: مثــل مفهوم الموافقة ص 53-72-92، ومفهوم المخالَفة: سواء كان وصــفاً ص 77-113-119، أو شرطاً ص65-102-103، أو ظرفاً ص 91... وقد نبَّهَ الشيخ رحمه الله على بعض المفاهِيمِ المُلْغاة: مثل تقريره أنّ "القَيْدَ الــذي

خرجَ مَخرجَ الغالِبِ لا مَفهومَ له" ص 173-174.[1] وقد قرَّرَ الأصُـوليُّون ذلك في ما يُستَثْنى اعتبارُه من (مفهوم المخالَفة). وهذا قولُ الجمهور، وأمـا الأحناف فلا يَحتَجُّون بمفهومِ المخالَفة أصلاً. والصوابُ قولُ الجمهور. وهـو الذي سار عليه السعدي رحمه الله.

1- قال السعدي رحمه الله في تفسيرِ قول الله عزَّ وجل: (حُرِّمت عليكم أمهاتُكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حُجورِكم مـن نسائكم اللاتي دخلتم بهن) النساء 23: "الربيبة: وهي بنتُ زوجته وإنْ نزلت؛ فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا: (وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)، الآية، وقد قال الجمهور إن قوله: (اللاتي في حجوركم) قيـدٌ خرجَ مخرجَ الغالب لا مفهوم له؛ فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجرِه؛ ولكنْ للتقييد بذلك فائدتان: إحداهما: التنبيهُ علـى الحكمة في تحريم الربيبة؛ وأنها كانت بمنزلة البنت؛ فمن المستقبَح إباحتها، والثانية: فيه دلالةٌ على جوازِ الخلوةِ بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجرِه من بناته". ص173-174.

المبحث الثامن
عناية السعدي بالأصول والمقاصد

[1] إنّ السعديَّ رحمه الله قد اعتنى بأصول الفقه:

فقد ذكر الشيخ رحمه الله أنّ (المحرَّم نوعان) ص80،[1] وأنّ (النهي للتحريم) ص 49. وأنّه (إذا ارتفع الْجُناح؛ رَجعَ الأمرُ إلى ما كان عليه) ص82، وقد نصَّ على (الإباحة) ص80، وأنَّ (الضروراتِ تبيح المحظـورات) ص 82، وأنَّ (الأصل في الأشياء الإباحةُ والطهارة) ص48، وأنـه (إذا أُبـيح كـلا الأمرين؛ فالتأخُّرُ أفضلُ لأنه أكثرُ عبادةً) ص93.

وأفادَ رحمه الله أنَّ (حُكم الحاكمِ لا يَبِيحُ مُحرَّماً ولا يُحرِّم حـلالا) ص 88، و(النهي عن الجائز إذا كان وَسِيلةً إلى مُحَـرَّم) ص 61-104-108، وأنّ (إخبار التقرير يدلُّ على الجواز) ص 118، وأنّ (الأمر بالشيء نَهْـيٌ عـن ضِدِّه) ص 57-71.

كما ذكر السعدي رحمه الله (العـام) و(الخـاص) ص 84-90-92-102، والعام المخصوص ص 104، وأنّ (العبرة بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخصُوصِ السبب) ص 51-65، وأنَّ (النكرة في سياقِ الشَّرطِ تَعُمّ) ص 57.[2]

كما ذكر رحمه الله (المُطلَق والمقيَّد) ص 66-70، وأنَّ (حمل المطلَقِ على المقيَّدِ مُقدَّمٌ على إجراء العُموم) ص 106.

1- قال رحمه الله: "المحرم نوعان: إما: محرمٌ لذاته: وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما: محرمٌ لما عرضَ له، وهو المحرم لتعلقِ حقِّ الله أو حقِّ عبادِه به، وهو ضد الحلال". ص80

2- ذكر ذلك في تفسيرِ قول الله تعالى: (بلى من كسب سيئة وأحاطتْ به خطيئتـه فأولئـك أصـحاب النـار هـم فيهـا خالدون)البقرة81: "(من كسب سيِّئةً): وهو نكرةٌ في سياق الشرط؛ فيعمّ الشرك فما دونه". ص 57.

كما نصّ رحمه الله على (الإجماع) ص70-71،[1] و(النسخ) والحكمة من تشريعه وإنكار اليهود له ص 62، وبيَّن رحمه الله (ما لا يدخله النسخ) ص 57، وقرَّرَ على طريقةِ الجمهور أنه (لا يُصار إلى النسخِ مع إمكانِ الجمع) ص 85. وأبانَ رحمه الله أنّ (الحكم يدورُ مع عِلّته وُجُوداً وعَدَماً) ص 77.

كما ذكر رحمه الله (الرخصة) ص 86-87، وبيَّنَ أنه (إذا حَصَلَ بعضُ الأعذارِ التي هي مَظِنَّةُ المشقّة؛ حَصلَ التخفيف) ص 120.

[2] إنّ هذا التفسيرَ قد اهتمَّ بالمقاصدِ والقواعد الشرعيّة:

كما في قولِ السعدي رحمه الله: "فالمنهيّات كلّها إمّا مَضرّةٌ محضةٌ، أو شرّها أكبر مِن خيرها. كما أنّ المأمورات إما مَصلحةٌ محضةٌ، أو خيرها أكبر مِن شرّها" ص 61.[2] و"النهيُ عن الجائز إذا كان وسيلةً إلى محـرَّم" ص 61.[3]

ومثَّل من الفروع بالنكاح فإنه "قد يُنهى عن كثرة الصداق؛ إذا تضمّن مَفسَدةً دِينيّةً، وعدم مصلحةٍ تُقاوِم" ص 173.

وأشار رحمه الله إلى (مراعاة المصلحة) ص 118، ومثَّلَ بأنّ (ترتيب الصّدقات يرجع في ذلك إلى المصلحة) ص 116، وقرّرَ أنه (يُرْتكَب أخفَّ

1- فقد قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (لتكونوا شهداء على الناس) البقرة 143 "في الآية دليل على أنّ إجماع هذه الأمة حجّةٌ قاطعةٌ, وأنهم معصومون عن الخطأ؛ لإطلاق قوله: (وسطاً) فلو قُدِّر اتفاقُهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور" ص71.

2- فقد قرّر ذلك في تفسير قول الله تعالى: (ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم) البقرة 102: "ذكر أنّ علمَ السحرِ مَضرّةٌ محضةٌ، ليس فيه منفعةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي: كما قال تعالى في الخمر والميسر: (قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس وإثمها أكبر من نفعهما)؛ فهذا السحر مضرّةٌ محضةٌ؛ فليس له داعٍ أصلاً، فالمنهيّات كلّها إمّا مضرّةٌ محضةٌ..." ص 61.

3- وقد قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا)البقرة 104: "(راعنا) أي راعِ أحوالنا؛ فيقصدون بها معنىً صحيحاً، وكان اليهود يريدون بها معنىً فاسداً؛ فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد؛ فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدّاً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرَّم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمرٍ غير لائق؛ فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال:(وقولوا انظرنا) فإنها كافيةٌ يحصل بها المقصود من غير محذور" ص 61.

المفسدتين لدفع أعلاهما) ص 89،[1] وهو حَفِيٌّ بهذه القاعدة، كما تراه في قوله رحمه الله في فوائدِ قصةِ الخضر عليه السلام: "منها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنه (يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما)؛ فإن قتلَ الغلام شرٌّ، ولكنَّ بقاءه حتى يفتنَ أبويه عن دينهما أعظم شراً منه..." ص 485.

وربما عبَّر رحمه الله عن ذلك بأنَّ "بعضَ الشرِّ أهونُ من بعض، وارتكاب أخفِّ الضررَين أولى من ارتكابِ أعظمِهما". ص 408. كما تراه في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، قال السعدي رحمه الله: "فإنَّ إخْوَةَ يوسُفَ لَمَّا اتفقُوا على قَتلِ يوسُفَ أو إلقائه أرضاً، وقال قائلٌ منهم: (لا تقتلوا يوسُفَ وألقَوْه في غيابة الجب)؛ كان قولُه أحْسَنَ منهم وأخَفَّ؛ وبِسَبَبِه خَفَّ عن إخْوَتِه الإثْمُ الكبير". ص 408.

كما قرَّرَ رحمه الله (اعتبارَ المقاصد في الأقوال كما هي مُعْتَبَرَةٌ في الأفعال) ص 101، و(فعل أدنى المصلحَتين؛ للعجز عن أعلاهما) ص 156، وأنه (إذا تزاحمَت المصالِحُ؛ قُدِّم أهَمُّها) ص 100. وأنّ (الوسائل لها حُكْم المقاصد) ص 99-103.

وقد نصَّ السعدي رحمه الله على المصالح والمفاسدِ المعتبرَة والملغاة؛ تبعاً لكونِها محققَّةً أو مُتوَهَّمة؛ فالأَوْلَى اعتِبارُ المتحقِّق من المصالح والمفاسدِ على المتوهَّم، فقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتِنِّي ألا في الفتنةِ سقطوا وإنَّ جهنمَ لَمُحيطةٌ بالكافرين): "فإنه على تقديرِ صدقِ هذا القائل في قَصدِه؛ فإنَّ في التخلُّفِ مفسدةً كبرى وفِتنةً عُظمى

1- قال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم) البقرة 191: "لَمّا كان القتال عند المسجد الحرام يُتوهَّم أنه مفسدةٌ في هذا البلد الحرام؛ أخبر تعالى أنّ المفسدةَ بالفتنة عنده بالشرك والصّدّ عن دينه أشدُّ من مفسدة القتل؛ فليس عليكم أيها المسلمون حرجٌ في قتالهم؛ ويستدلّ بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يُرتكَب اخفُّ المفسدتَيْنِ؛ لدَفْعِ أعلاهما" ص 89.

مُحققةٌ: وهي معصيةُ الله ومعصيةُ رسولِه والتجرّي على الإثم الكبير والوزرِ العظيم، وأما الخروجُ فمَفسدةٌ قليلةٌ بالنسبة للتخلُّفِ، وهي مُتوهَّمةٌ، مع أنَّ هذا القائل قصدُه التخلُّف". ص339. وقال رحمه الله في تفسير سورة (عـبس): "فدلَّ هذا على القاعدة المشهورة: أنه لا يُترَكُ أمرٌ معلومٌ لأمـرٍ موهُـومٍ ولا مصلحةٌ مُتحقَّقةٌ لِمصلحةٍ مُتوهَّمةٍ، وأنه ينبغي الإقبالُ على طالبِ العِلمِ المفتقرِ إليه الحريصِ عليه أزيد من غيره". ص911

وقد ذكرَ رحمه الله بعضَ القواعد الشرعيّة. مثل: (مَن استعجَلَ شـيئاً قبـل أوانه؛ عُوقِب بِحِرْمانِه" ص 169.

المبحث التاسع
اهتمام السعدي
بالإدارة والسياسة الشرعية

[1] إنّ هذا التفسيرَ قد زَخَرَ بالنظرِ الثاقبِ إلى أهميّةِ السياسةِ الشرعيّة والمسائلِ الإدارية، وضرورة أن يُعِدَّ المسلمون الكفاءات اللازمة؛ لأداء وَظيفتِهم الرِّساليّة:

فقد ذكر رحمه الله أنَّ "اجتماع أهلِ الكلمة والحلِّ والعقد، وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه،ثم العمل به؛ أكبرُ سببٍ لارتقائهم وحُصُولِ مَقصودِهم"، وأنّ "العلم والرّأي مع القوّة المنفِّذة: بهما كمال الولايات؛ وبفقدِهما ـ أو بفقدِ أحَدهما ـ نُقْصانها وضررها" ص 109.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (فإن طلَّقها فلا جُناحَ عليهما أن يتراجعا إن ظنَّا أن يُقيما حدود الله): "في هذا دلالةٌ على أنّه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخلَ في أمرٍ من الأمور خصوصاً الولايات الصغار والكبار؛ أن ينظرَ في نفسه؛ فإن رأى من نفسه قوّةً على ذلك، ووثق بها أقدم، وإلا أحْجَمَ" ص 103.

كما نصَّ رحمه الله على منهجِ القرآن في الجمعِ "بين تعليم الأحكام، وما به تُنفَّذ الأحكام، وما به تُدرك فوائدها وثمراتها!" ص 155.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (وليس البرُّ بأن تأتوا البيوتَ من

ظُهورِها ولكنَّ البِرَّ مَن اتقى وأْتُوا البيوتَ مِن أبوابِها) البقرة 189: "يُستفادُ مِن إشارةِ الآيةِ أنه ينبغي في كلِّ أمرٍ مِن الأمُورِ أن يأتيَه الإنسانُ من الطريقِ السَّهل القريبِ الذي قد جُعِلَ له مُوصِلاً: فالآمرُ بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ ينبغي أن ينظرَ في حالةِ المأمور ويستعمل معه الرفق والسياسةَ؛ التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلِّم والمعلِّم ينبغي أن يسلكَ أقربَ طريقٍ وأسهلَه يحصل به مقصوده؛ وهكذا كلُّ مَن حاول أمراً مِن الأمورِ وأتاه من أبوابِه وثابرَ عليه؛ فلا بد أن يحصلَ له المقصودُ بعونِ الملك المعبود" ص 88-89.

[2] وفي شأنِ الرئاسة: ذكر رحمه الله أنّه بقوة الرأي والجسم "تتمُّ أمورُ الملك؛ لأنه إذا تَمَّ رأيه وقوي على تنفيذِ ما يقتضيه الرأيُ المصيب؛ حصلَ بذلك الكمال، ومتى فاتَه واحِدٌ مِن الأمرين؛ اختل عليه الأمرُ، فلو كان قويَّ البدنِ مع ضعفِ الرأيِ؛ حصل في الملك خرقٌ وقهرٌ ومُخالَفةٌ للمشروع: قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمور وليس له قوةٌ على تنفيذها؛ لم يُفِدْه الرأي الذي لا يُنفِّذه شيئاً" ص 108.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (وما محمّدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسلُ أَفَإِنْ مات أو قُتِل انقلَبْتم على أعقابِكم) آل عمران 144: "في هذه الآية الكريمة إرشادٌ من الله تعالى لعبادِه أن يكونوا بِحالةٍ لا يُزَعْزِعُهم عن إيمانهم — أو عن بعض لوازمِه — فقدُ رئيسٍ؛ ولو عظُم، وما ذاك إلا بالاستعدادِ في كل أمرٍ من أمورِ الدّينِ بِعدّة أُناسٍ مِن أهلِ الكفاءة فيه؛ إذا فُقِدَ أحدُهم قام به غيرُه، وأن يكون عمومُ المؤمنين قصدُهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصدٌ في رئيسٍ دون رئيسٍ؛ فبهذه الحال

يستتبُّ لهم أمرُهم، وتستقيمُ أمُورُهم" ص 151.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (ولو كنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضُّوا مِن حولِك) آل عمران 159: "الأخلاقُ الحسنة مِن الرئيس في الدين؛ تجذب الناسَ إلى دينِ الله، وترغّبهم فيه، مع ما لصاحبِه مِن المدحِ والثواب. والأخلاقُ السيّئةُ من الرئيسِ في الدين؛ تنفِّر الناسَ عن الدين، وتبغِّضهم إليه؛ مع ما لصاحبِها من الذمِّ والعقابِ الخاصِّ؛ فهذا الرسولُ المعصوم يقول الله له ما يقول؛ فكيف بغيره؟!" ص 154.

ومن ذلك ذِكْرُهُ رحمه الله "ما في الاستشارةِ من الفوائدِ والمصالح الدينية والدنيوية"؛ حيث قرّر "أنّ فيها تسميحاً لخواطِرهم، وإزالةً لما يصير في القلوبِ عند الحوادث؛ فإنَّ مَن له الأمرُ على الناس إذا جمع أهلَ الرأيِ والفضل وشاورهم في حادثةٍ من الحوادث؛ اطمأنت نُفوسُهم وأحَبُّوه، وعلمُوا أنه ليس بِمُستَبِدٍّ عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحةِ الكلِّيَّة العامّة للجميع؛ فبذلُوا جُهدَهم ومَقدورَهم في طاعتِه؛ لِعِلْمِهم بسعيِه في مصالح العموم؛ بخلاف مَن ليس كذلك؛ فإنهم لا يكادون يُحِبُّونه محبةً صادقةً، ولا يطيعُونه، وإن أطاعوه فطاعةٌ غير تامّة..." ص 154.

وقال رحمه الله في فوائدِ قصة يوسف عليه السلام: "منها: أنه لا بأس أن يخبرَ الإنسانُ عما في نفسِه من صفاتِ الكمالِ: من علمٍ أو عملٍ إذا كان في ذلك مصلحة؛ ولم يقصد به العبد الرياء وسلم من الكذب؛ لقول يوسف: (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم)، وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدرُ عليه من حقوقِ الله وحقوقِ عبادِه، وأنه لا بأس

بطلبِها إذا كان أعظمَ كفاءةً من غيرِه؛ وإنما الذي يُذَم إذا لم يكن فيه كفايةٌ أو كان موجوداً غيرُه مثله أو أعلى منه؛ أو لم يرد بها إقامةَ أمــرِ الله؛ فبهــذه الأمورِ يُنهَى عن طلبِها والتعرُّضِ لها". ص410

[3] إنّ هذا التفسيرَ الماتِعَ قد حَثَّ على كل عِلمٍ نافعٍ: كقولِ السعدي رحمه الله في شأنِ التاريخ عند قول الله تعالى: (يا أهلَ الكتاب لم تحاجُّون في إبــراهيم وما أُنْزِلَت التوراةُ والإنجيلُ إلا مِن بَعدِه أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حــاجَجْتُمْ في ما لكم به عِلمٌ فلِمَ تحاجُّون فيما ليس لكم بــه عِلــمٌ والله يعلــم وأنــتم لا تعلمون) آل عمران 65-66: "فيها... حَثٌّ على علم التاريخ، وأنه طريــقٌ لِرَدِّ كثيرٍ من الأقوال الباطلةِ والدعاوى التي تُخالف ما عُلِمَ من التــاريخ" ص 134.

المبحث العاشر
اهتمام السعدي بالنواحي التربوية

[1] إنّ الشيخَ السعدي قد اهتمَّ بتربيةِ النفوس وتزكية القلـوب؛ لِعلمِـه بـأنَّ وظيفةَ الدُّعاةِ هدايةُ الناس إلى الخير، وأمرُهم بالمعروف ونَهيُهم عن المنكر. وقد سجَّلَ السعدي رحمه الله مَواعِظَ بليغةً نافعةً؛ مما يـدلُّ علـى صـلاحِه ورُسُوخِ عِلمِه: كما في قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجـل: (كمـا أرْسَلْنا فيكم رسولا مِنكم يتلُو عليكم آياتِنا ويُزَكِّيكم) البقرة 151: "أي: يُطهِّر أخلاقَكم ونُفوسَكم, بتربيتِها على الأخلاقِ الجميلة, وتنزيهِهـا عـن الأخـلاقِ الرذيلة, وذلك كتزكيتِهم مِن الشرك إلى التوحيد, ومن الرياء إلى الإخـلاص, ومن الكذب إلى الصدق, ومن الخيانة إلى الأمانة, ومن الكِبْر إلى التواضـع, ومِن سُوءِ الخلق إلى حُسنِ الخلق, ومِن التباغضِ والتهاجُرِ والتقـاطُعِ إلـى التحابِّ والتواصُلِ والتوادُد, وغير ذلك مِن أنواعِ التزكية" ص 74.

وكما في قوله رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (وقولـوا للنـاس حُـسْناً) البقرة 83: "من القولِ الحسن أمرُهم بالمعروف ونهيُهم عن المنكر، وتعليمُهم العلم، وبذلُ السلام والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيـب؛ ولمـا كـان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمرٍ يقدر به على الإحسانِ إلى كلِّ مخلوق، وهو الإحسانُ بالقول؛ فيكون في ضِمنِ ذلك النهيُ عن الكلام القبـيح للنـاس حتى للكُفار؛ ولهذا قال تعالى: (ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن). ومن أدبِ الإنسان الذي أدّب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصِم، بل يكون حسنَ الخلق، واسعَ الحلم، مجاملاً لكلِّ أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق؛ امتِثـالاً لأمر الله ورجاءً لثوابه" ص 57-58.

ومثل قوله رحمه الله في تفسير قولِ الله عزَّ وجـل: (ولا يُكَلِّمُهـم الله يـومَ القيامة) البقرة 174: "بل قد سَخِطَ عليهم، وأعْرَضَ عنهم؛ فهذا أعظمُ علـيهم مِن عذابِ النار!". ص 82.

وكذلك تعبيره رحمه الله عند قول الله تعالى: (ومثلُ الذين يُنفِقُـون أمـوالَهم ابتغاءَ مَرضاةِ الله وتثبيتاً مِن أنفُسِهم كمثلِ جنةٍ بربوةٍ أصابَها وابلٌ فآتَتْ أكُلَها ضِعْفَين فإنْ لم يُصِبْها وابلٌ فَطَلٌّ) البقرة آية 265 بقوله: "فيالله لو قُدِّر وُجُودُ بُستانٍ في هذه الدار بهذه الصفة؛ لأسرَعتْ إليه الهِمَم، وتزاحَم عليه كلّ أحد، ولحصل الاقتتالُ عنده، مع انقضاءِ هذه الدار وفنائها وكثـرةِ آفاتِهـا وشـدّةِ نَصَبِها وعنائها؛ وهذا الثواب الذي ذكره الله كأنّ المؤمن ينظر إليـه بعـينِ بصيرةِ الإيمان، دائمٌ مُستمرٌّ فيه أنواع المسرّات والفرحات؛ ومع ذلـك تجـد النفوسَ عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة! أتُرى ذلك زهداً فـي الآخـرة ونعيمها؟ أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقَّنَ العبدُ ذلـك حقَّ اليقين، وباشر الإيمانُ به بشاشةَ قلبه؛ لانبعَثتْ مِن قلبِه مُزعِجات الشوق إليه، وتوجّهتْ هِمَم عزائمه إليه، وطوّعتْ نفسه له بكثـرة النفقـات؛ رجـاء المثوبات!" ص 114.

[2] إنّ الشيخ قد اهتم بشأنِ الموعظةِ البليغة، والذكرى النافعة؛ حتى يـستفيد منها المسلمون في هذا العصرِ الذي طَغَتْ فيه المادّة، وقستْ فيـه القلـوب، وكثرت فيه المعاصي والخَبائث:

فقد قال رحمه الله في تفسير قول الله عزّ وجل: (ولا تتبعُوا خُطواتِ الشيطان إنه لكم عدوٌّ مُبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولـوا علـى الله مـا تعلمون) البقرة 168-169: "فلينظر العبدُ نفسَهُ مع أي: الدّاعِيَيْنِ هو؟ ومـن أيّ الحزبين؟ أتتبع داعيَ الله الذي يريـد لـك الخيـر والـسعادة الدنيويـة

والأخروية؟ الذي كلّ الفلاح بطاعته, وكلّ الفوز في خدمته, وجميع الأربـــاح في معاملته! المُنْعِم بالنِّعَم الظاهرة والباطنة, الذي لا يـــأمر إلا بـــالخير, ولا ينهى إلا عن الشر, أم تتبع داعيَ الشيطان الذي هو عدوّ الإنسان, الذي يريد لك الشرّ ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كلّ الشر فـــي معصيته, وكلّ الخسران في ولايته, الذي لا يأمر إلا بشرّ, ولا ينهى إلا عـــن خير!" ص 81.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قول الله تعالى: (صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لا يرجعـــون) البقرة 18: "قوله تعالى (صُمٌّ) أي: عن سماع الخير, (بُكْمٌ) أي: عن النطـــق به, (عُمْيٌ) عن رؤية الحق, (فهم لا يرجعون)؛ لأنهم تركوا الحـــق بعـــد أن عرفوه, فلا يرجعون إليه" ص 44.

وقال رحمه الله في تفسير قولِ الله تعالى: (ومثلُ الذين كفروا كمَثلِ الذي ينعقُ بما لا يسمعُ إلا دُعاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُم لا يعقلون) البقرة 171: "أخبر تعالى أنّ مثلهم عند دُعاء الدّاعي لهم إلى الإيمان مثل البهائم التي ينعق لهـــا راعيها, وليس لها عِلمٌ بما يقول داعيها ومُناديها؛ فهم يسمعون مجرّد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة, ولكنهم لا يفقهون فقهاً ينفعهم؛ فلهذا كانوا صُمّاً لا يسمعون الحق سماعَ فهمٍ وقبولٍ, عُمْياً لا ينظرون نظرَ اعتبارٍ, بُكماً فهـــم لا ينطقون بما فيه خيرٌ لهم" ص 81.

وقال رحمه الله عند قول الله عزّ وجل: (ولا تلبِسُوا الحقَّ بالباطـــل وتكتمـــوا الحقَّ وأنتم تعلمون) البقرة آية 42 "مَن لَبَسَ الحقَّ بالباطل؛ فلم يميِّز هذا من هذا، مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه وأُمِر بإظهاره؛ فهو مـــن دُعـــاة جهنّم لأنّ الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم؛ فاختـــاروا لأنفـــسكم إحدى الحالتين!" ص 51

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله تعالى: (ألم تعلَمْ أنَّ الله له مُلكُ الـــسمواتِ

والأرض): "فالعبدُ مُدَبَّرٌ مُسَخَّرٌ تحت أوامرِ ربّه الدينيّة والقدريّة؛ فما له والاعتراض؟!" ص 62.

وقال رحمه الله عند قول الله تعالى: (فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً) البقرة 79: "والدنيا كلُّها من أولها إلى آخرها ثمنٌ قليلٌ!" ص 56.

وقال رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ لإبراهيم الخليل عليه السلام: (إني جاعلُك للناس إماماً) "أي: يقتدون بك في الهدى, ويمشون خلفَك إلى سعادتِهم الأبدية, ويحصل لك الثناءُ الدائم والأجر الجزيل, والتعظيم مِن كل أحد. وهذه لَعَمْرُ الله أعظم درجةٍ تنافسَ فيها المتنافِسُون, وأعلى مقامٍ شَمَّرَ إليه العاملُون, وأكمل حالةٍ حصَّلها أولو العزم من المرسلين" ص 65.

وقال في تفسير قولِ الله تعالى: (يومَ تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ مِن خيرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تودُّ لو أنّ بينَها وبينَه أَمَداً بعيداً) آل عمران 30: "أي مسافةً بعيدةً؛ لعظمِ أسفِها وشدّةِ حُزنِها؛ فلْيحذَر العبدُ مِن أعمال السُّوء التي لا بدّ أن يحزنَ عليها أشدَّ الحزن، ولْيتركْها وقتَ الإمكان قبل أن يقول: (يا حَسرتَى على ما فرّطتُ في جَنْبِ الله)، (يومئذ يَوَدُّ الذين كفروا وعَصَوا الرسولَ لَوْ تُسوَّى بهم الأرض)، (ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه يقول يا ليتَنِي اتخذتُ مع الرسولِ سبيلاً يا ويلَتا ليتَنِي لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً)، (حتى إذا جاءنا قال يا ليتَ بيني وبينَك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين)؛ فوالله لَتَرْكُ كلِّ شهوةٍ ولذّةٍ – وإنْ عَسُرَ تركها – أيسرُ مِن معاناةِ تلك الشدائدِ واحتمالِ تلك الفضائح؛ ولكنَّ العبدَ مِن ظُلْمِه وجَهلِه لا ينظرُ إلا الأمرَ الحاضر؛ فليس له عقلٌ كاملٌ يلحَظُ به عواقبَ الأمُور؛ فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وآجلاً، ويُحْجِمُ عمَّا يَضُرُّه عاجِلاً وآجِلاً!" ص 128.

وقال رحمه الله في تفسير قولِ الله تعالى: (قلْ إنْ كُنتُم تُحبُّون الله فاتبعوني

يُحْبِبْكم الله ويغفِرْ لكم ذُنوبَكم والله غفورٌ رَحيم) آل عمران 31: "بهذه الآيـة يُوزَنُ جميعُ الخلق؛ فعلى حسبِ حظِّهم مِن اتباعِ الرسولِ يكون إيمانُهم وحبُّهم لله، وما نقص من ذلك نقص" ص 128.

[3] إنّ السعديَّ رحمه الله يَلْهَجُ كثيراً في تفسيرِه بحمدِ الله وشُكرِه على عظيم نعمائه؛ وهذا يزيد الأعمالَ بركةً وصَلاحاً وفَلاحاً؛ ولعلَّ هذا التفسيرَ البـديعَ إلا ثَمرة مِن ثَمَراتِ قول الله تعالى: (لئنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكم):

فمن أمثلةِ ذلك ما قاله السعدي رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (ومما رَزَقْناهم يُنفقُون) البقرة 3: "في قوله: (رَزَقْناهم) إشارةٌ إلى أنَّ هذه الأمـوالَ التي بين أيديكم, ليسَتْ حاصِلةً بِقُوَّتِكم ومِلْكِكم, وإنمـا هـي رِزْقُ الله الـذي خَوَّلكم, وأنعَمَ به عليكم, فكما أنعَمَ عليكم وفضَّلكم على كثيـرٍ مِـن عبـادِه؛ فاشْكُرُوه بإخْراجِ بعضِ ما أنْعَمَ به عليكم, وواسُوا إخوانَكم المُعدَمِين" ص41.

وما قاله رحمه الله في تفسير الله تعالى: (ولأُتِمَّ نِعْمَتِي عليكم) البقـرة 150: "قد أعْطاه الله مِن الأحوالِ والنِّعَم, وأعْطَى أُمَّتَه, ما أَتَمَّ به نِعْمتَه عليه وعليهم, وأنزلَ الله عليه: (اليومَ أكْمَلْتُ لكم دِينَكم وأتْمَمْتُ عليكم نِعْمتي, ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دِيناً)؛ فللّهِ الحمدُ على فَضلِه, الذي لا نبلُغ له عَدّاً, فَضلاً عن القيـامِ بِشُكْرِه" ص 74.

وكذلك قوله رحمه الله في تفسيرِ قول الله عزَّ وجل: (يا أيها الذين آمنوا كلُوا من طيِّباتِ ما رزَقْناكم واشكرُوا لله إنْ كنتُم إياه تعبدُون) البقرة 172:"والأمرُ بالشكر عُقَيب النعم؛ لأنَّ الشكرَ يحفظ النِّعَمَ الموجودة ويجلبُ النِّعَمَ المفقـودة؛ كما أنَّ الكفرَ يُنفِّرُ النِّعَمَ المفقودة ويُزيلُ النِّعَمَ الموجودة" ص 81.

وقوله رحمه الله في تفسيرِ قول الله تعالى: (فاذْكُرُوني أذْكُرْكُمْ واشْكُرُوا لـي) البقرة 152: "أي على ما أنعَمتُ عليكم بهذه النِّعَم, وصَرفتُ عنكم صُـنُوفَ

النِّقَم. والشكرُ يكون بالقلب: إقراراً بالنِّعَمِ واعترافاً, وباللِّسانِ: ذِكْـراً وثَنـاءً, وبالجوارحِ: طاعةً للهِ وانقياداً لأمرِهِ واجْتِناباً لِنَهيِه؛ فالشكرُ فيه بَقـاءُ النعمـةِ الموجودة، وزيادةٌ في النِّعَمِ المفقودة، قال تعالى: (لئن شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكم). وفي الإتيانِ بالأمرِ بالشُّكرِ بعد النِّعَمِ الدينية: مِن العلمِ، وتزكيةِ الأخلاق، والتوفيقِ للأعمال، بيان أنها أكبرُ النِّعَم. بل هي النِّعَم الحقيقيـةُ التـي تـدوم إذا زال غيرها؛ وأنه ينبغي لمن وُفِّقوا لِعِلْمٍ أو عَمَلٍ أنْ يَشكُروا الله على ذلك؛ لِيَزِيدَهم مِن فَضلِه، ولِيَندَفعَ عنهم الإعْجاب؛ فيَشتَغِلُوا بالشُّكْر!" ص 74.

وكذلك قوله رحمه الله في تفسيرِ قول الله تعالى: (إنَّ فـي خَلْـقِ الـسموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهار) البقرة 164: "أليس مِن القَبيحِ بالعبـادِ أن يَتمتَّعُوا بِرِزقِه, ويعيشُوا ببرِّه, وهم يستعينُون بذلك على مَساخِطِه ومَعاصِيه؟! أليس ذلك دليلاً على حِلْمِهِ وصَبْرِه وعَفْوِه وصَفْحِه وعَمَيمِ لُطفِه؟! فله الحمـدُ أولاً وآخِراً, وظاهِراً وباطِناً". ص 79.

[4] إنّ هذا التفسيرَ الجليلَ قد شوّقَ الصالِحين إلى بُلوغِ جنَّاتِ النعـيم: فمِـن ذلك قولُ السعدي رحمه الله في تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجلَّ: (الذين يَظُنُّون أنهم مُلاقُو ربِّهم وأنهم إليه راجِعُون) البقرة 46: "فهذا الذي خَفَّفَ عليهم العِبادات، وأوجَبَ لهم التسلِّيَ في المصيبات، ونفَّس عنهم الكُرُبات، وزَجَرَهم عن فِعـلِ السيِّئات؛ فهؤلاء لهم النَّعِيمُ المقيمُ في الغُرُفاتِ العالِيات!" ص52.

وكما جاء في قوله رحمه الله عند تفسيرِ قولِ الله عزَّ وجل: (أحْياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُون) آل عمران 169: "لفظُ (عندَ ربِّهم) يقتضِي عُلُوَّ دَرَجَتِهم، وقُـربَهم مِن ربِّهم (يُرزَقُون) مِن أنواعِ النعيمِ الذي لا يعلمُ وَصفَه، إلا مَن أنعـمَ بـه عليهم؛ ومع هذا (فَرِحين بما آتاهُم الله مِن فَضلِه) أي مُغْتَبِطين بذلك قد قَرَّتْ عُيونُهم، وفَرِحَتْ به نُفُوسُهم؛ وذلك لِحُسْنِه، وكَثرتِه، وعَظمتِه، وكمالِ اللَّـذَّةِ

في الوُصُولِ إليه، وعدمِ المُنغِّصِ؛ فجمعَ الله لهم بين نَعيمِ البــدنِ بــالرزقِ، ونعيمِ القلبِ والروحِ بالفرَحِ بما آتاهم مِن فَضلِه؛ فتَمَّ لهم النعــيمُ والــسُّرور!" ص 157. وكذلك قوله رحمه الله في تفــسيرِ قــولِ الله تعــالى: (فاسْــتَبِقُوا الخيرات) البقرة 148: "ومَنْ سَبَقَ في الدنيا إلى الخيرات؛ فهو السابقُ فــي الآخرةِ إلى الجنات"! ص 73.

خاتمة

الحمدُ لله على توفيقِه في إتمامِ هذا الكتاب؛ بِفَضلِه ومَنِّه وجُودِه، والصلاةُ والسلامُ على أشرَفِ رُسُلِ الله ومُصطَفاه من خَلقِه ومُجْتَباه، وعلى آله وصَحبِه ومَن والاه.

وبعد، فإنَّ غايتِي مِن تأليفِ هذا الكتابِ التعريفُ برَوعةِ هذا التفسيرِ وعَظيمِ نَفعِه وكثرةِ فوائدِه، وقد جرَّبتُ ذلك بنفسي؛ فرأيتُ بَرَكتَه ونَفاسَتَه (وليس الخبرُ كالمعايَنة)؛ فأرَدتُ أن أدُلَّ إخواني على ذلك؛ والدالُّ على الخير كفاعلِه. (والدين النصيحة)،[1] فهو من أحْسَنِ التفاسيرِ نَفْعاً للعامةِ في قضايا العقيدةِ والمنهَجِ والعبادةِ والتربيةِ والسُّلوك، كما أنَّ طالبَ العلمِ يجد فيه ضالَّتَه مِن الفُنونِ والمعارفِ: في التفسيرِ والحديثِ واللغةِ والفقهِ والأصُولِ.

وإنِّي أرجُو مِن كلِّ مَن استَفاد مِن (روائح الوَردِ مِن روائعِ السعدي) أنْ يدعوَ لي ولِوالدَيَّ وللسَّعدي رحمه الله ولشيوخِي وإخواني وللمسلمين والمسلمات.
وأسأل اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريمِ (تيسيرَ) العِلمِ النافِع، والعملِ الصالِحِ لي ولجميعِ المسلمين، إنه هو (الكريم الرحمن)، وأن يُوَفِّقَنا إلى مَعرِفةِ (تفسيرِ كلام المنَّان)، وأنْ يَنفعَنا ويَنفعَ بنا ويَجْعلَنا سَبباً لِمَن اهتَدَى، وأنْ يَجْمَعَنا و(السعديَّ) رحمه الله مع النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداءِ والصالِحين في جَنَّاتِ النعيم:

1- رواه مسلم رحمه الله.

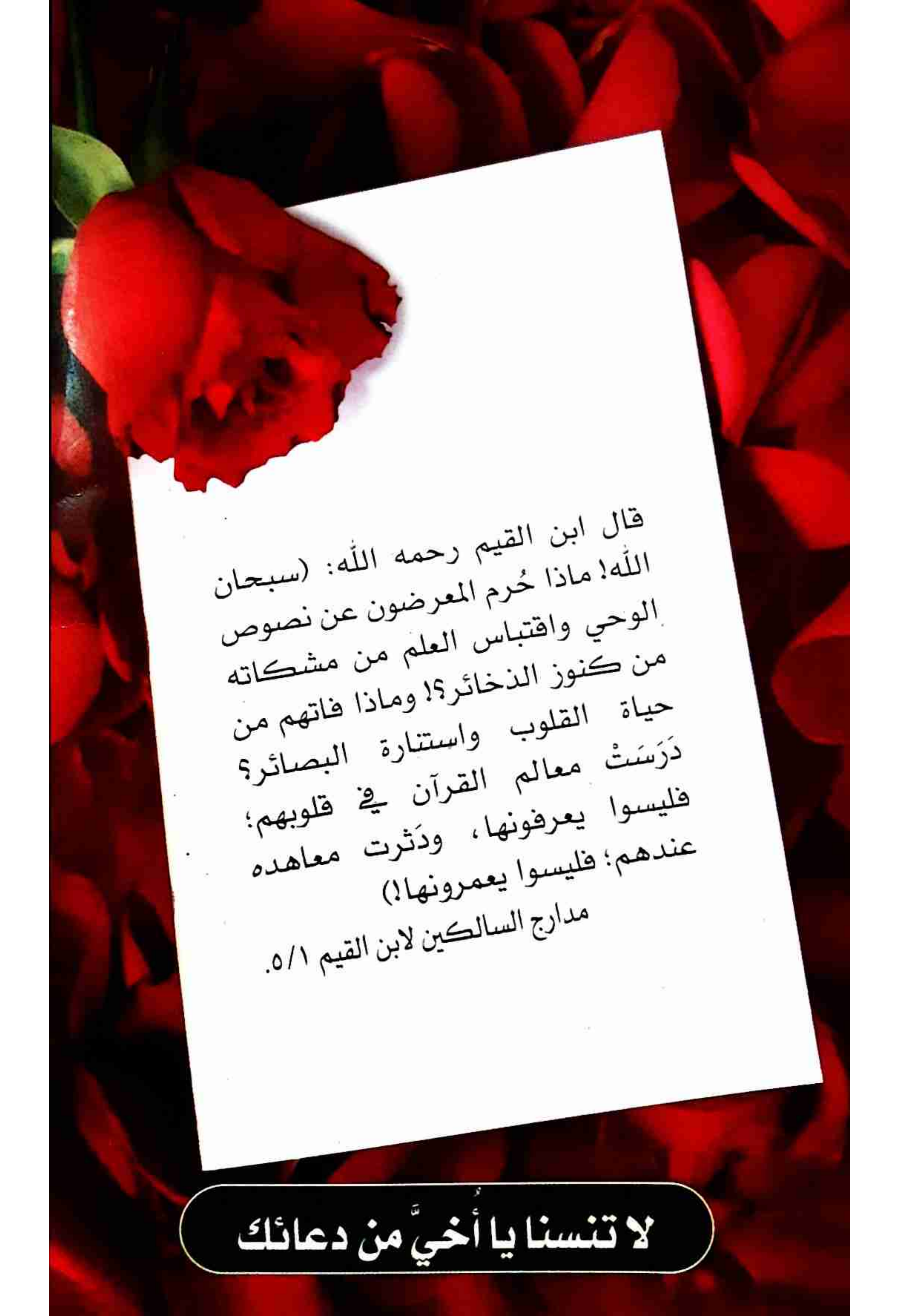
"في جنَّـــةٍ طابَتْ وطاب نَعيمُـــها   مِن كلِّ فاكِـــهةٍ بِها زَوْجانِ!
أنـــهارُها تـــجري لهم مِن تَحتِهم   محفوفةً بالنخـــلِ والرُّمـــانِ!
غُرُفاتُها مِن لُؤلُـــؤٍ وزَبَرْجَـــدٍ   وقُصُورُها مِن خالِصِ العِقيانِ!
قُصِـــرَتْ بها للمتقـــين كواعِبٌ   شُبِّهْنَ بالياقوتِ والمرجـــانِ!
بِيضُ الوُجوهِ شُعـــورُهنّ حَوالكٌ   حُمْرُ الخدودِ عواتقُ الأجفانِ!
فُلْجُ الثغورِ إذا ابْتَسَمْنَ ضَواحِكاً   هِيفُ الخصُورِ نَواعمُ الأبدانِ!
خُضرُ الثِّيابِ ثديُّهن نَواهِـــدٌ   صُفْرُ الْحُلِيِّ عَواطِرُ الأرْدانِ!"[1]

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسولِ الله، وعلى آله وصَحبه ومَن والاه.

محمد عمر دولة
الخرطوم
العاشر من رجب 1428هـ
الموافق له: 2007/7/25م

1- نونيّة القحطاني ص 87-88.

فهرس


قال ابن القيم رحمه الله: (سبحان
الله! ماذا حُرم المعرضون عن نصوص
الوحي واقتباس العلم من مشكاته
من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من
حياة القلوب واستنارة البصائر؟
دَرَسَتْ معالم القرآن في قلوبهم؛
فليسوا يعرفونها، ودَثرت معاهده
عندهم؛ فليسوا يعمرونها!)
مدارج السالكين لابن القيم ١/٥.
لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك